علاء فلاح الدراجي

رحلتي إلى المهدي عجل الله فرجه الشريف

رواية

ممهدون

الكتاب: رحلتي إلى المهدي عجل الله فرجه الشريف

تأليف: علاء فلاح الدراجي ـ مؤسسة ممهدون الثقافية

الناشر: مرتكز ودار ممهدون للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الأولى 1447 هـ 2026 م

الكمية: 1000

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

{ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ }

القصص:5

إهداء

إلى مَن يملأُ الوجودَ بفيضِ حضورهِ وإن توارى عن العيون.

إلى الشمسِ التي لم تحجبها سحبُ الغيبةِ عن نبضِ القلوب.

سيدي يا صاحب الزمان...

إليك يرحلُ الحرفُ شوقاً، ومنك يستمدُّ القلمُ ضياءه، تقبل مني هذا القليل، عذراً لتقصيري في ليلِ غيبتك.

صاحب الزمان
حے ازہرا

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الأمين والأئمة الهداة الميامين.

بين طيات هذه الحكاية، لا نسرد مجرد خيال، بل نحاول ملامسة الحلم الذي يغفو في جفون المنتظرين، ونرسم بالكلمات ملامح الفجر الذي نرقبه كل صباح ومساء؛ إن هذه الرواية هي محاولة أدبية لتوظيف النصوص الشريفة الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام بخصوص آخر الزمان، وصياغتها في قالب واقع محسوس؛ لعلها تقرّب المسافة بين القلوب وبين غائبها الحاضر، وتجعل التمهيد فعلاً شعورياً يعيشه المؤمن في تفاصيل حياته.

ولأنَّ للأمانة العلمية حقاً، وجب التنويه على مرتكزات هذا العمل:

أولاً: لا توقيت ولا استعجال: إن ما ستطالعه في هذه الفصول ليس محاولة لتحديد زمان، ولا ادعاءً بمعرفة أوان الظهور، (كذب الوقاتون). كما أنها ليست دعوة لاستعجال الظهور بغير إذن الله، بل هي محاكاة

وجدانية لما يمكن أن تكون عليه الأحداث، غايتها الاستعداد النفسي والروحي.

ثانياً: فلسفة البداء: نحن كمنتمين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، نؤمن بعمق أنَّ لله المشيئة والقدر، وأنَّ البداء عقيدة راسخة تمنحنا الأمل وتعلّمنا حكمة الله، لذا، فإنَّ الكثير من الحوادث والعلامات التي وردت في الروايات قد تتغير، أو تتقدم، أو تتأخر، أو يبدلها الله بما يراه صلاحاً للعباد وللمسيرة الإلهية.

ثالثاً: النص والواقع: بالرغم من أنني استقيتُ جلَّ أحداث هذا العمل من مرويات الأثر، إلا أنها لا تُعتبر نصوصاً قطعية واجبة الحدوث بصورتها الحرفية؛ فالمغيبات أسرار إلهية، وقد صيغت هنا كرؤية فنية تحاول استقراء ما وراء الكلمات، لا كحقائق تاريخية لا تقبل التغيير وكذلك لا أقول بأني ذكرت جميع المرويات في هذا الشأن بل يوجد عدد لا بأس به لم أنقله في الرواية.

إنَّ الغاية القصوى من هذا العمل هي أن يشعر الممهدون بوقع أقدام الفجر، وأن نخرج بالإمام من حيز الانتظار السلبي إلى حيز الحضور الفاعل في الوجدان الإنساني.

أرجو أن تجد في هذه الكلمات بصيصاً من نور، وخطوةً في طريق الارتباط الروحي والتمهيد لوليِّ النعمة (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء).

علاء فلاح الدراجي

23/ رمضان/ 1447

الفصل الأول

إرهاصات الفجر وسط ركام الفتن

لم يكن العالم ينهار فجأة، بل كان يتآكل ببطء كجدار قديم نخرته الرطوبة، حتى باتت كل ريح عابرة تهدد بإسقاطه.

في تلك الأيام، كانت شاشات التلفاز والهواتف لا تنقل سوى مشاهد الخوف: أوبئة تجتاح القارات، حروب اقتصادية تطحن الفقراء، واصطكاك خفي ومعلن بين قوى الشرق والغرب، كانت الفتنة التي قرأنا عنها طويلاً في بطون الكتب، قد فردت جناحيها الأسودين على الأرض كلها.

لم أعد ذلك الشاب المقعد الذي ينتظر معجزة لشفاء جسده فقد وهبني الله عافية لم أكن أحلم بها، وكأن هذا الجسد كان يُدّخر لغاية أعظم، لزمان تتطلب فيه العقيدة رجالاً يقفون على أقدامهم كالجبال، كنت أجلس في إحدى مقاهي النجف القديمة، أراقب الوجوه المارة كان القلق ينهش ملامح الناس، وحالة من الترقب المشوب بالخوف تسيطر على حشود الزائرين وأهل المدينة، كنت أراقب حماس الجماهير وانفعالاتهم المتضاربة مع كل خبر عاجل، كيف يتحركون كأمواج متلاطمة تفتقد إلى بوصلة،

بينما كان يقيني الداخلي، الذي صقلته الأيام والبحث، يمنحني هدوءاً غريباً وسط هذه العاصفة.

جلس منتظر قبالي، زميلي في رحلة البحث واليقين. كان يقلب صفحات كتاب قديم، وعيناه تنتقلان بين السطور وبين شريط الأخبار العاجلة على الشاشة المعلقة في زاوية المقهى، منتظر يمتلك عقلاً يزن الأمور بميزان المنطق الصارم والهندسة، لا تستهويه الشائعات، بل يحلل الأحداث كعالم رياضيات يفكك معادلة معقدة.

قال منتظر، وهو يرتشف شايه المهيل دون أن يرفع عينيه عن الكتاب هل ترى كيف تتقاطع الخطوط يا هادي؟ الغرب يغرق في أزماته الداخلية وتتفكك تحالفاته، والشرق يحاول اقتناص اللحظة، إنّها ذات الفتنة الغربية والشرقية التي تتحدث عنها الروايات... صراع الأمم على قصعتها قبل أن يحل الخراب الشامل.

أجبته، وأنا أسند ظهري إلى الجدار العتيق: الأمر لم يعد مجرد تحليلات سياسية يا منتظر، أشعر وكأن الزمن يتسارع، انظر إلى ما يحدث في

الحجاز... الفراغ السياسي بدأ يلوح في الأفق، الصراعات الخفية بين الأجنحة الحاكمة تكاد تخرج إلى العلن، كلما قرأت خبراً عن موت شخصية بارزة هناك، تذكرت روايات انقضاء ملك السنين وبداية ملك الشهور والأيام [1].

رفع منتظر نظره إليّ، وكانت عيناه تلتمعان ببريق عجيب: المنطق يفرض علينا ألا نستبق الأحداث، لكن تواتر العلامات لا يمكن لعقل سليم أن يتجاهله، إذا صدقت قراءتنا، فإن الخطوة القادمة ستكون في الشام.

هناك حيث تتشابك الرايات المتصارعة، وتُمهد الأرض لخروج المشؤوم من الوادي اليابس.

في تلك اللحظة، شعرت بقشعريرة تسري في ظهري؛ لم يكن الخوف هو ما أشعر به، بل هيبة اللحظة، كنت أنظر إلى يديّ القويتين الآن، وأتذكر

---

1 ـ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: من يضمن لي موت عبد الله أضمن له القائم ـ ثم قال ـ إذا مات عبد الله لم يجتمع الناس بعده على أحد، ولم يتناه هذا الأمر دون صاحبكم إن شاء الله ويذهب ملك السنين، ويصير ملك الشهور والأيام. فقلت: يطول ذلك؟ قال: كلا.
بحار الأنوار للمجلسي: 52 / 210.

كيف كنت عاجزاً حتى عن رفع كوب الماء، سألت نفسي مراراً: لماذا شُفيت الآن؟ لماذا في هذا التوقيت بالذات؟ هل ليكون لي سهم في رسم ملامح هذا الفجر الموعود؟

خرجنا من المقهى نمشي في أزقة مدينة النجف، كان صوت الأذان يرتفع، يمزق صمت القلوب الخائفة. الناس من حولنا كانوا يعيشون أيامهم بصعوبة، يركضون خلف أرزاقهم في عالم يغلي.

قلت لمنتظر ونحن نقترب من الصحن الشريف: إنَّ أصعب ما في هذه المرحلة ليس الفتن بحد ذاتها، بل غربلة النفوس، الشكوك التي تعصف ببعض المنتظرين عندما تطول المدة وتشتد الأزمات، إنها فتن كقطع الليل المظلم [1]، لا ينجو منها إلا من كان قلبه أصلب من الحديد، ومتصل بكتاب الله تعالى.

---

1 ـ عن أبي عبد الله عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن...)) وسائل الشيعة ج4 ص 828 ب 3، ح3.

توقف منتظر والتفت إليّ، ووضع يده على كتفي بثقل، قائلاً بنبرة حاسمة: لذلك نحن هنا يا هادي، ليس لنراقب كباقي الناس، بل لنستعد، الفجر لا ينبلج إلا بعد أحلك ساعات الليل، وركام هذه الفتن هو الأرضية التي سيُبنى عليها صرح العدل الشرق يستعر، والشام تغلي، والحجاز تترقب، والعراق... العراق هو قلب المعادلة وميدان التمحيص الأكبر.

نظرت إلى قبّة المرقد الشريف المذهبة، والتي كانت تعكس آخر خيوط شمس الغروب.

كنت أعلم في قرارة نفسي أنَّ مرحلة التنظير قد انتهت، وأننّا نقف على حافة التاريخ، الأحداث الكبرى لم تعد حبراً على ورق، بل واقعاً يتشكل أمام أعيننا، والمرحلة القادمة تتطلب سيوفاً لا ترتجف، وقلوباً لا تزيغ. كنت مستعداً.. كنا جميعاً مستعدين.

الفصل الثاني

أنين الندبة وانكسار الجسد

أنا هادي... ذلك الذي خاض أشرس المعارك في ميادين لا يراها أحد، وطوى المراتب في تزكية النفس حتى دكّ حصون هوى نفسه، في روايتي السابقة رحلتي مع النفس[1]، شاركتكم كيف دخلتُ مملكة نفسي المتمردة، وكيف حاصرتُ مدينة الشهوة حتى رفعت راية الاستسلام، لأتحرر أخيراً من قيود وأغلال طالما أسرت روحي وأثقلت نفسي.

اليوم، أقف على عتبة جديدة، فقد أدركتُ أن الجهاد الأكبر وضوءٍ روحيّ لأداء صلاة الجهاد الأصغر، لقد جهزتُ نفسي لأكون في عداد جند الإمام الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، فهو لا يبحث عن مجرد أرقام تُحشّد، بل يُريد مؤمنين متقين، صهرتهم بوتقة الابتلاء، وتطهرت بواطنهم ليكونوا أهلاً لحمل راية السماء، ولمن شاء أن يعرف تفاصيل معركتي الأولى، يمكنه أن يقلّب

1 ـ رواية "رحلتي مع النفس" للكاتب نفسه تتحدث حول رحلة الشاب هادي من الضياع الى نور البصيرة، يمكنكم الاطلاع عليها تجدونها منشورة في مكتبات جوجل وموقع مؤسسة ممهدون الثقافية.

صفحات قصتي في رواية (رحلتي مع النفس). أما الآن، فدعوني أخبركم كيف بدأت رحلتي الحقيقية، رحلتي إلى المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

كان فجر الجمعة يتنفس بندى بارد يلامس زجاج نافذتي، جلستُ على سجادتي، والكون من حولي غارق في صمت مهيب لا يكسره سوى خفقان قلبي المترقب، فتحتُ أحد كتب الحديث، وتوقفتُ عند تلك الحادثة التي تزلزل كياني كلما مررت بها، حادثة دخول كبار الأصحاب على الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حين وجدوه جالساً على التراب، يبكي بكاء الواله الثكلى ذات الكبد الحرى، وقد تغير لونه، والدموع تنحدر على خديه، وقد بللت محجريه، وهو يقول بلوعة تحرق القلوب: **سيدي... غيبتك نفت رقادي، وضيّقت عليّ مهادي، وابتزت مني راحة فؤادي، سيدي غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد بفناء الجمع والعدد**[1]...

1 ـ كمال الدين وتمام النعمة: ص354.

تسمرتُ في مكاني، بكى الإمام الصادق عليه السلام لغيبة حفيده قبل أن يُولد، وقبل أن تبدأ محنة الانتظار بسنين طويلة، فكيف بي أنا الذي أعيش مرارة هذه الغيبة، وأكتوي بنارها، وأرى الأرض تمتلئ ظلماً وجوراً في كل نشرة أخبار؟

أجهشتُ بالبكاء حتى بللت دموعي لحيتي وموضع سجودي.

رفعتُ يديّ المرتجفتين نحو السماء، واندمجت روحي مع كلمات دعاء الندبة. لم أكن أقرأ الكلمات، بل كنت أستغيث بها، صرختُ بقلبٍ منفطر، وكأنني أقف أمام بيته أبحث عن طيفه: **بِنَفْسي اَنْتَ مِنْ مُغَيَّبٍ لَمْ يَخْلُ مِنّا... بِنَفْسي اَنْتَ مِنْ نازِحٍ ما نَزَحَ عَنّا...**

كنتُ أناجيه مناجاة المحب الذي أضناه طول الفراق، أسأله بلوعة تذيب الروح: **هَلْ اِلَيْكَ يَا بْنَ اَحْمَدَ سَبيلٌ فَتُلْقى؟ هَلْ يَتَّصِلُ يَوْمُنا مِنْكَ بِعِدَةٍ فَنَحْظى؟ مَتى نَرِدُ مَناهِلَكَ الرَّوِيَّةَ فَنَرْوى؟ مَتى نَنْتَقِعُ مِنْ عَذْبِ مائِكَ فَقَدْ طالَ الصَّدى؟** [1]

1 ـ مقطع من دعاء الندبة.

في تلك اللحظة، كنت أشعر بأن روحي قد تحررت تماماً من كثافة الطين، وحلّقت تبحث عن بقية الله في شعاب الأرض، لقد كنت جاهزاً، أو هكذا ظننت، لأحمل سيفي وأركض بين يديه، جندياً لا يرى في الوجود سوى إمامه.

لكن السماء كانت تُخبئ لي امتحاناً من نوع آخر، امتحاناً لا يقيس طهارة الروح فحسب، بل يختبر صلابة اليقين عند تحطم الجسد، فالإمام لا يختبر أصحابه بالرخاء، بل يمحصهم بالبلاء، وقد أشرت لكم أنَّ جسدي شفي وسأقص عليكم ممّا شفي؟

في ظهيرة ذلك اليوم، خرجتُ أطوي شوارع مدينة النجف الأشرف، والسكينة تغمرني، لم أكن أدري أن عجلة الزمن ستتوقف بي عند ذلك التقاطع المشؤوم. صوت احتكاك إطارات عنيف يصم الآذان... صرخة مبهمة ابتلعها ضجيج الشارع... ثم قوة معدنية هائلة تضرب جسدي بوحشية، لتطيح بي في الهواء كدمية من ورق.

لم أشعر بالألم في تلك اللحظة، بل شعرت بانسحاب مفاجئ للحياة، ثم ظلام دامس ابتلع كل شيء.

فتحتُ عينيّ ببطء بعد أيام لا أعرف عددها. بياض ساطع يغزو عيني، رائحة معقمات طبية تخنق الأنفاس، وأصوات أجهزة رتيبة تراقب نبضي المتعب. حاولتُ أن أنهض، أن أُحرك قدميّ لأشعر بالأرض تحتي، أو لأعدل جلستي المزعجة، لكن الاستجابة كانت معدومة، جسدي السفلي لم يكن موجوداً في خارطة إدراكي.

وقف الطبيب أمامي، يتهرب من نظراتي المحملة بآلاف الأسئلة، قبل أن يلقي بكلماته التي نزلت على روحي كالصاعقة: هادي... لقد تعرّضت لصدمة عنيفة، هناك كسر مهشّم في الفقرات القطنية، وتلف تام في الحبل الشوكي، أنا آسف جداً... إنه شلل نصفي دائم.

عالمي انهار في ثانية واحدة أنا هادي، الذي حلّق بروحه في تجليات الملكوت وقهر مارد النفس، أصبحتُ سجيناً في نصف جسد ميت، كيف سأمهد للإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف وأنا عاجز عن خدمة نفسي؟ كيف سأحمل

السلاح وأركض في ساحات الوغى، وأنا لا أقوى على الانتقال من السرير إلى ذلك الكرسي المتحرك القابع في زاوية الغرفة كوحش ينتظر فريسته؟

كان الانكسار الجسدي مراً، لكن الانكسار النفسي كان أشد مرارة؛ لقد تحولتُ في غمضة عين من مقاتل ينتظر ميادين التمهيد، إلى مقعد يراقب الحياة وهي تمضي مسرعة من خلف زجاج غرفته البارد.

هل كانت رحلتي مع النفس وهماً؟ أم أن هذا الشلل هو نقطة الانطلاق الحقيقية لرحلتي إلى المهدي؟ كنت أختنق بدموعي، وأحتاج إلى إجابة، إلى طبيب لا تحده تقارير المستشفيات البشرية، وإلى معجزة لا تنبت بذورها إلا في تراب الغري.

لم تكن جدران المستشفى الباردة سوى محطة انتظار ثقيلة، لكنها علمتني درساً قاسياً: إنَّ جهاد النفس الذي خضته سابقاً كان في ساحة إرادتي، أما الآن، فالساحة ساحة التسليم المطلق لمراد الله. طلبتُ من إخوتي أن

يخرجوني من هذا السجن الأبيض، وأن يأخذوني إلى حيث تُجبر الخواطر الكسيرة... إلى مرقد طبيب الأرواح، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

كنت أجلس على الكرسي المتحرك، وأراقب العجلات وهي تدور لتقطع المسافة التي كنت أطويها سابقاً بخفة ورشاقة. كل مطب في الطريق كان يرسل موجة من الألم الوهمي إلى ساقيّ اللتين فقدتا الإحساس بالحياة.

قبل أن أصل إلى الحرم، طلبت منهم أن يعرجوا بي على أحد الأزقة العتيقة في حي الحويش، كنت أبحث عن رجل، عارف جليل عرفته من زمن ليس ببعيد، أدخلوني عليه، وكان يجلس في غرفته البسيطة المكتظة بالكتب، يسّبح بإخفات.

حين وقعت عيناه عليّ وأنا أسير الكرسي، لم يجزع ولم يواسني بكلمات الشفقة المعتادة، بل ابتسم ابتسامة رقيقة تفيض بنور البصيرة، وقال بصوت هادئ: لقد روّضت جواد نفسك يا هادي، فخافوا عليك من العُجب، فكسروا قيد جسدك ليطلقوا روحك في فضاء الافتقار.

أنت لم تُشلّ يا بني... بل جُعلت في حالة الاضطرار القصوى، وتلك هي شفرة الوصول.

لم أفهم قصده جيداً. نظرت إليه بدموع محتبسة: كيف أصل وأنا مقعد؟ كيف أكون جندياً للمهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وهذا حالي؟

اقترب العارف مني، ووضع يده المرتجفة على كتفي، وهمس: المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف لا يطلب أجساداً سليمة بقلوب مريضة، بل يطلب قلوباً سليمة حتى لو تهشّمت أجسادها، اذهب إلى جده أمير المؤمنين عليه السلام في جوف الليل؛ لا تطلب الشفاء لتمشي في أسواق الدنيا، بل اطلبه لتسعى في ميادين التمهيد. توسل بصاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف عند ضريح المرتضى، فما من مكروب يندبه هناك بصدق الانقطاع، إلا وأغاثه... إنه عين الحياة التي لا تنضب.

في الثلث الأخير من الليل، دخلتُ الصحن الحيدري الشريف؛ كان الهواء بارداً، والسماء مرصّعة بالنجوم التي تبدو وكأنها مصابيح معلقة فوق القبة

الذهبية دفعوا كرسيّ المتحرك حتى وصلت إلى الشباك الفضي، طلبت منهم أن يتركوني بمفردي.

أمسكتُ بقضبان الضريح بيديّ المرتجفتين، وأسندتُ جبهتي على الفضة الباردة لم أبكِ على شبابي، ولا على عجزي، بل تذكرتُ غربة إمامي. تخيّلتُ كيف أنَّ الأرض كلها مقعدة ومشلولة بظلم الطغاة، تماماً كما هو جسدي.

بدأتُ أناجي صاحب الزمان، بصوت يخرج من أعماق روحي الممزقة: يا سيدي... يا بقية الله... جئتك ببدنٍ ميت، وقلبٍ يشتعل بنار الشوق إليك، لقد سألت الله أن يجعلني من جندك، فجاءني البلاء ليختبر صدقي سيدي، والله لا أريد هذه الساقين لأمشي بها في دروب زائلة، بل أريدها لأقف بها كالجبل بين يديك حين يفر الناس، أريدها لأطوي بها صحاري الأرض باحثاً عنك. يا سيدي العالم مشلول ينتظر قيامك، وعبدك مشلول ينتظر نظرتك... فهل تردّني وأنا بباب جدك علي عليه السلام؟

أغمضت عيني، وانخرطت في بكاء هستيري أذاب كل ذرة من كبريائي. انقطعتُ عن كل أسباب الأرض، ولم يبقَ في وجودي سوى حقيقة واحدة: الله تعالى، ووليه الأعظم.

فجأة... سكن كل شيء توقف ضجيج الزائرين القلائل من حولي. تلاشت برودة الليل، واستحال الهواء إلى نسيم يحمل رائحة لم أشم مثلها قط... رائحة مسك عجيب، ممزوج بعطر زهور لا تنبت على هذه الأرض.

شعرتُ بظلٍ يقف خلفي لم ألتفت، فالهيبة التي غمرت المكان جمّدتني ثم أحسستُ بيدٍ توضع على كتفي، لم تكن مجرد لمسة؛ بل كانت تياراً من النور، صعقة من الحياة الصافية سرت من كتفي، لتتدفق عبر عمودي الفقري المهشم شعرت بالحرارة تندفع بقوة مرعبة نحو أطرافي السفلى الخلايا الميتة كانت تصرخ وهي تُبعث من جديد، والأعصاب المقطوعة كانت تلتحم وكأنها أسلاك تُربط بيد غيبية قاهرة.

سمعتُ صوتاً... لم يكن صوتاً يقرع طبلة الأذن، بل كان نداءً يخترق شغاف القلب، نداءً يحمل حنان الأبوة وجلال الإمامة: قم يا هادي، فقد قُبلت بيعتك، وحان وقت المسير.

انتفض جسدي بقوة لا إرادية، رفعتُ رأسي عن الضريح، والتفتُّ خلفي بسرعة البرق، لم يكن هناك أحد، الرائحة الزكية لا تزال تعبق في المكان، لكن الطيف النوراني قد غاب في زحام الغيب.

نظرتُ إلى ساقيّ... كانت أصابع قدمي تتحرك، الدموع تعمي بصري، والقلب يكاد يخرج من صدري استندتُ بيديّ على الكرسي المتحرك، ودفعتُ جسدي نحو الأعلى. العضلات التي قيل لي إنها ماتت للأبد، انقبضت لتستجيب لأمر السماء.

انفصلتُ عن الكرسي وقفتُ على قدميّ لم أترنح، لم أسقط، وقفتُ بصلابة رمح أُعدّ ليُطعن به صدر الباطل.

صرختُ صرخةً دوت في أرجاء الحرم، صرخة هزت أركان الليل: يا مهدي! سقطتُ ساجداً على رخام الصحن الشريف، أقبل الأرض،

وأغسلها بدموع الشكر لم يكن هذا مجرد شفاء لجسد، بل كان ختم قبول من السماء لقد أعادني الله تعالى ببركة الإمام إلى الحياة لأكون له، وله وحده.

حين خرجتُ من الحرم أمشي على قدميّ، تاركاً الكرسي المتحرك خلفي كشاهد على معجزة لا تُنكر، كنت أعلم أن مرحلة العزلة وبناء الذات قد انتهت، وأن مرحلة البحث والتأثير قد بدأت كان عليّ الآن أن أجد رفاق الدرب، أولئك الذين ادخرهم الله ليكونوا أنصاراً في هذا المشروع الكوني، كان عليّ أن أجد منتظر بعقله الهندسي الفذ، وأن أواجه وليد الفيلسوف المادي، لأنتشله من ظلام المادة إلى نور الغيب.

رحلتي الحقيقية، بدأت الآن.

الفصل الثالث

تقاطع الرايات واصطكاك الأمم

الأيام كانت تتساقط كأوراق خريف محترقة، وكل ورقة تسقط كانت تكشف عن وجه جديد من وجوه الفتنة التي قرأنا عنها في بطون الأحاديث، لم تكن نشرات الأخبار مجرد تقارير سياسية، بل كانت بالنسبة لي ولمنتظر كأنها شاشة تعرض صفحات عصر الظهور، العالم كان ينقسم بوضوح مرعب إلى معسكرات تتجهز لملحمة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً.

كنت أجلس في غرفتي، أراقب نشرات الأخبار المتتالية، يدي تقبض على حافة الطاولة بقوة، لا لضعف، بل من شدة الترقب. جسدي الذي كان يوماً ما مقيداً بكرسي كهربائي، كان يضج الآن بطاقة غريبة، طاقة جندي ينتظر نفير قائده دخل منتظر يحمل بيده كعادته دفتر ملاحظاته ونسخ من كتب الغيبة وعصر الظهور، وعيناه تلمعان بذاك اليقين الذي يسبق العاصفة.

قال منتظر وهو يرمي ببعض الصحف على الطاولة: لقد بدأت يا هادي... الأمم تتداعى علينا كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، انظر إلى

تحركات الأساطيل الغربية، إنهم الروم الذين تحدثت عنهم الروايات، يتحركون بكل ثقلهم نحو سواحلنا.

نظرت إلى شاشة التلفاز التي كانت تعرض صوراً لمدمرات وبوارج حربية ضخمة تعبر المضائق متجهة نحو البحر الأبيض المتوسط، قلت متسائلاً: الروم؟ هل نحن متأكدون أنهم الغربيون؟ أليس الروم تاريخياً هم البيزنطيون أصحاب القسطنطينية وروما؟

جلس منتظر، وفتح كتابه وبدأ يسرد بتحليل دقيق: الروم في الأحاديث الشريفة ليسوا مجرد عرق إيطالي انقرض؛ إنهم الشعوب الأوروبية وامتدادهم في أمريكا، هم ورثة الإمبراطورية الرومانية حضارياً وسياسياً وعسكرياً؛ إنهم أصحاب الفتنة الصماء العمياء التي ذكر النبيﷺ أنها تطبق على الأمة، تدخل كل بيت ولا تترك مسلماً إلا صكته، كلما رُتقت من جانب انفتقت من جانب آخر. الغرب اليوم يا هادي هو التجسيد الحرفي لبني الأصفر. الأخبار تؤكد أن قواتهم المارقة بدأت بالنزول في

منطقة الرملة بفلسطين، وتتمركز أساطيل أخرى عند سواحل أنطاكية في تركيا وسوريا. هل تذكر حديث الإمام الباقر عليه السلام؟

وُتقبل مارقة الروم حتى ينزلوا الرملة [1].

شعرت ببرودة تسري في عروقي وأنا أربط الأحداث، الرملة وأنطاكية... إنها ذات المواقع التي حددتها الأحاديث قبل مئات السنين، أضفت بصوت خافت: وأنطاكية أليس هناك غار أصحاب الكهف؟ ابتسم منتظر وقال: بالضبط! الروايات تذكر أن الله تعالى سيظهر الفتية من كهفهم مع كلبهم عند نزول الروم هناك، كآية إلهية كبرى للمسيحيين الغربيين، وفي أنطاكية أيضاً سيستخرج أصحاب المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف التوراة والإنجيل الأصليين ليحاجوا بهما الغربيين واليهود. الروم في حالة رعب من المد الإسلامي القادم، وسوف يضطرون لاحقاً لعقد هدنة مع الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف تستمر لسبع سنين بوساطة من السيد المسيح عليه السلام بعد نزوله،

---

1 ـ عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (وستقبل مارقة الروم حتى ينزلوا الرملة، فتلك السنة يا جابر فيها اختلاف كثير في كل أرض من ناحية الغرب). بشارة الإسلام ص 102.

لكنهم سيغدرون وينقضونها بعد سنتين أو ثلاث، ويأتون تحت ثمانين راية، كل راية تحتها اثنا عشر ألفاً... أي قرابة المليون جندي، لتكون الملحمة العظمى في مرج عكا وصور.

صمتنا قليلاً، وكأن صمتنا كان يبتلع هول الكارثة القادمة؛ لكن العالم لم يكن مسرحاً للروم وحدهم، فقد كانت هناك رايات أخرى تلوح في الأفق الشرقي.

قلت لمنتظر وأنا أقلب قنوات الأخبار لتظهر مشاهد تحشيدات عسكرية ضخمة في مناطق أوراسيا: وماذا عن الترك؟ الروايات تتحدث عن اصطكاك الروم والترك وتخالفهم وتكاثر الحروب في الأرض بسببهم. هل هم الأتراك الحاليون؟

نفث منتظر زفرة طويلة وأجاب وهو يشير إلى الخريطة: الترك في لغة الأحاديث ومصادر التاريخ الإسلامي لا يقتصرون على تركيا الحالية، بل يشملون القبائل الآسيوية والأوروبية الشرقية، وتحديداً الروس ومن يدور في فلكهم من دول المعسكر الشرقي، مسيحيتهم كانت قشرة

سطحية، وسرعان ما تبنوا المادية والإلحاد. الأحاديث تخبرنا عن إخوان الترك المارقين [1]، وكيف أنهم سينزلون منطقة الجزيرة ـ وهي المنطقة الواقعة بين العراق وسوريا قرب ديار بكر ـ إنهم يتقدمون الآن ليزاحموا الروم على النفوذ. العالم يغلي، واصطكاك هاتين القوتين العظميين سيشعل حروباً إقليمية طاحنة، وربما حرباً عالمية تتركز خسائرها المهولة في الغرب، كما وصفها أمير المؤمنين عليه السلام: وتشب نار في الحطب الجزل من غربي الأرض [2].

---

1 ـ عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام (يا جابر الزم الأرض ولا تحرك يدا ولا رجلا حتى ترى علامات أذكرها لك إن أدركتها: أولها: اختلاف بني العباس وما أراك تدرك ذلك، ولكن حدث به من بعدي عني، ومناد ينادي من السماء، ويجيئكم الصوت من ناحية دمشق بالفتح، وتخسف قرية من قرى الشام تسمى الجابية، وتسقط طائفة من مسجد دمشق الأيمن، ومارقة تمرق من ناحية الترك، ويعقبها هرج الروم، وسيقبل إخوان الترك حتى ينزلوا الجزيرة، وسيقبل مارقة الروم حتى ينزلوا الرملة، فتلك السنة يا جابر فيها اختلاف كثير في كل أرض من ناحية المغرب.

معجم أحاديث الإمام المهدي ج5: ص 20 الحديث 1452.

2 ـ بحار الأنوار: ج53 / ص82.

وقفت من مكاني، وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً خطواتي كانت ثابتة، قوية، تذكرني بنعمة الشفاء، وتذكرني بأن هذا الجسد يجب أن يكون في ساحة الحق عندما تدق الساعة؛ كان المنظر الجيوسياسي [1] يتبلور أمامي كلوحة شطرنج مرعبة، الروم في السواحل والرملة، والترك الروس في الجزيرة يتأهبون؛ لكن... كان هناك طرف ثالث، الطرف الذي يمثل أس المشكلة، ومركز السرطان في جسد الأمة.

توقفت أمام منتظر وقلت: اليهود... أين هم من كل هذا؟ هم في قلب فلسطين، محاطون بكل هذه الجيوش، وهم من يحرك خيوط اللعبة الغربية.

1 ـ الجيوسياسية أو الجيوبوليتيك مصطلح تقليدي ينطبق في المقام الأول على تأثير الجغرافيا على السياسة، فهو علم دراسة تأثير الأرض (برها وبحرها ومرتفعاتها وجوفها وثرواتها وموقعها).

أشرق وجه منتظر بالجدية الصارمة، وفتح مصحفه الصغير الذي لا يفارقه، وبدأ يقرأ بصوت خاشع: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً...} [1].

أغلق المصحف وقال: تاريخهم كله يتلخص في هذه الآيات يا منتظر الإفساد الأول عوقبوا عليه في صدر الإسلام على يد المسلمين الأوائل، الذين جاسوا خلال ديارهم ودخلوا المسجد الأقصى؛ لكن الله وعدهم برد الكرة، {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً} [2]. هل رأيت في التاريخ كله علواً لليهود وسيطرة على العالم بالمال والإعلام والنفوذ كما هو حالهم اليوم؟ إنهم في مرحلة العلو الكبير والإفساد الثاني الذي لا مثيل له، لقد جمعهم الله من شتات الأرض مصداقاً لقوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً} [3].

1ـ الاسراء:4.

2ـ الاسراء: 6.

3ـ الاسراء: 104.

أكملت عنه وأنا أستحضر كل ما قرأته وسمعته: وإذا جاء وعد عقوبتهم الثانية، سيبعث الله عليهم عباداً أولي بأس شديد... إنهم المهدون، أصحاب الرايات السود من خراسان، ومن ينضم إليهم من المخلصين من أهل العراق واليمن، وفي النهاية جيش الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف. الروايات تؤكد أن اليهود سيختبئون وراء الحجر والشجر، وسينطق الحجر والشجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله.

ابتسم منتظر ابتسامة فيها مرارة الواقع وأمل المستقبل: تماماً؛ لكن اليهود والروم أجبن من أن يواجهوا المد الإسلامي الزاحف من المشرق بأنفسهم، إنها سنتهم الدائمة: القتال من وراء جدر أو عبر وكلاء عندما يرى اليهود والغربيون أن رايات المشرق تقترب من أطراف فلسطين، وأن الجبهة تضيق عليهم، سيبحثون عن وكيل محلي، خط دفاع عربي بوجه إسلامي مزيف، طاغية دموي يسيطر على بلاد الشام ويضرب بيد من حديد، ليحمي خاصرة إسرائيل ويوقف زحف المهدين. تسمرت في

مكاني، الكلمة كانت تتردد في ذهني كصدى جرس إنذار. الوكيل... طاغية الشام، قلت بصوت يكاد يختنق من شدة الوضوح: السفياني!

هز منتظر رأسه بقوة: نعم، السفياني تقاطع الرايات، ونزول الروم في الرملة، ونزول الترك في الجزيرة، وعلو اليهود ورعبهم من رايات المشرق... كل هذا هو المسرح الذي سيُخرج لنا المشؤوم من الوادي اليابس [1]، الأحداث تتسارع يا أخي، وفتنة الشام تمخض أهلها مخض الماء في القربة؛ قريباً جداً، ستُرفع الراية الحمراء، وسيبدأ الفصل الأدمى.

نظرت من نافذة غرفتي ـ التي انتقلت من بغداد للسكن فيها ـ نحو سماء النجف الصافية؛ كان الهواء يحمل رائحة تراب الأرض، أرض العراق التي ستكون قريباً ساحة ومحوراً لكل هذه الصراعات؛ أغمضت عيني، ودعوت الله في سري أن يثبت أقدامنا، فقد انتهى وقت الكلام، واقتربت

1ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (يخرج إبن آكلة الأكباد من الوادي اليابس، وهو رجل ربعه، وحش الوجه، ضخم الهامة، بوجهه أثر الجدري، إذا رأيته حسبته أعور، اسمه عثمان وأبوه عنبسة (عيينة) وهو من ولد أبي سفيان. حتى يأتي أرض قرار ومعين فيستوي على منبرها). البحارُ: 52/ 205.

لحظة اصطكاك الأمم، وبتنا على شفا حفرة من نار، إما أن تحرقنا، أو نعبرها نحو الفجر الموعود.

الفصل الرابع

الرحلة بين قساوسة روما وحاخامات اليهود

لي صديق اسمه وليد، ذلك الفيلسوف الغارق في بحار النظريات المادية، والذي طالما انتقد الحقيقة المهدوية.

حين دخلت المقهى مع منتظر، كان وليد يمسك بكتاب لكانط، وقفت أمامه بصمت.

رفع وليد نظارته الطبية السميكة ببطئ تجمدت عيناه. سقط كتابه على الطاولة، وشهق شهقة مكتومة.

هادي؟! كيف...؟ متى...؟ التقارير الطبية... الحبل الشوكي...! كان وليد يتلعثم، وهو يمرر يديه المرتجفتين على ساقيّ ليتأكد أنه لا يرى طيفاً.

جلست أمامه بثقة، وابتسمت قائلاً: التقارير الطبية صحيحة يا وليد، الحبل الشوكي كان ممزقا لكن هناك طبيبٌ لا يحتاج إلى مشرحة ولا إلى قوانين فيزياء ليعيد ربط ما انقطع، لقد قصدتُ باب مدينة العلم، وهناك، تكفل صاحب الزمان بشفائي.

تراجع وليد إلى كرسيه، ومسح جبهته التي تعرقت فجأة: لابد أن هناك تفسيراً علمياً! لعلها صدمة عصبية عكسية... أو استشفاء ذاتي نادر للخلايا... لا يمكن إقحام الميتافيزيقيا [1] في البيولوجيا [2] بهذه البساطة!

تدخل منتظر بهدوئه الهندسي المعتاد، وقال: يا وليد، احتمالية أن يلتحم حبل شوكي مقطوع ذاتياً تساوي صفراً في معادلات الطب الحديث، ما تراه أمامك ليس صدفة بيولوجية، بل هو متغير خارجي تدخل لكسر القاعدة، وهذا المتغير لا يمكن أن يكون إلا قوة قاهرة.

وجهتُ نظري إلى وليد، وقلت بنبرة هادئة ولكنها تخترق العقل: أنت تبحث عن الحقيقة يا وليد، ولكنك قيدت نفسك في صندوق المادة، العالم ينهار، النظريات التي تعبدونها أوصلت البشرية إلى شفير الهاوية، والجميع يبحث عن منقذ، أنا لا أطلب منك أن تؤمن بالمهدي المنتظر

---

1 ـ ما وراء الطبيعة أو الماورائيات أو الميتافيزيقا: هو فرع من الفلسفة يدرس جوهر الأشياء. يشمل ذلك أسئلة الوجود والصيرورة والكينونة والواقع.

2 ـ البيولوجيا: هو علم من العلوم الطبيعية يهتم بدراسة الحياة واشكالها المختلفة ووظيفته كيف تتفاعل الكائنات الحية مع بعضها ومع البيئة المحيطة بها.

بمجرد رؤيتك لشفائي، واريدك أن تعلم أن المهدي عجل الله فرجه الشريف ليس تجسيدا لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب بل هو عنوان لطموح اتجهت اليه البشرية بمختلف اديانها ومذاهبها وصياغة لإلهام فطري أدرك الناس من خلاله على تنوع عقائدهم ووسائلهم إلى الغيب أنّ للإنسانية يوما موعوداً على الأرض تتحقق فيه رسالات السماء، وتجد في المسيرة المكدودة للإنسان على مر التاريخ استقرارها وطمأنينتها بعد عناء بل لم يقتصر هذا الشعور بهذا الشعور الغيبي والمستقبل المنتظر على المؤمنين دينيا بالغيب بل طويل امتد إلى غيرهم أيضا وانعكس، حتى أشد الايدلوجيا[1] والاتجاهات الغيبية رفضا للغيب كالمادية الجدلية التي فسرت التاريخ على أساس التناقضات وآمنت بيوم موعود تصفى فيه كل التناقضات ويوم فيه الوئام والسلام[2].

---

1 ـ هي النسق الكلي لـلأفكار والمعتقدات والاتجاهات العامة الكامنة في أنماط سلوكية معينة. وأصبحت تطلق على علم الاجتماع السياسي تحديدا.

2ـ بحث حول المهدي عجل الله فرجه الشريف: 7 – 8 السيد محمد باقر الصدر قدس سره.

وهكذا يا صديقي وليد فإننا نجد أنّ التجربة النفسية لهذا التصور الذي مارسته الإنسانية على مر الزمان من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموما بين بني الإنسان إذاً فالإيمان بالفكرة التي يجسدها المهدي الموعود هي من أكثر الأفكار انتشاراً بين البشر كافة لأنها تستند إلى فطرة التطلع للكمال بأشمل صورة؛ أي أنها تعبّر عن حاجة فطرية لذلك فتحققها حتمي؛ لأنَّ الفطرة لا تطلب ما هو غير موجود كما هو معلوم.

أردف منتظر قائلا:

دعوني اطرح عليكم كلاماً اقتبسته من كتاب "الطور المهدوي" الذي أشار فيه الكاتب إلى البعد الكوني والعقلي للاستخلاف وأعطى فكرة عامة للمهدوية حيث قال: يؤكد الباحثون في التأريخ وعلم الاجتماع يوماً بعد آخر أنَّ فكرة وجود منقذ للبشرية: هي فكرة عامة تظهر بشكل أو بآخر في المجتمعات الإنسانية، رغم اختلافها الشديد، وتباينها في الثقافة والقومية والدين، ومن هنا يظهر خطأ التصور القائل أنَّ فكرة المهدوية هي فكرة دينية غيبية فقط!!

فإذا كان جوهر الفكرة وظهور قيادة عالمية تحكم العالم بالعدل وتقيم القانون وتخلص البشرية من ويلات الحروب والمجاعات، فأن هذا الهدف كان ولا يزال من أهداف المصلحين، والساسة، والحكماء، والفلاسفة، في مختلف العصور، بل هو اليوم في العالم المتحَّظر أظهر منه في أي وقت مضى كما نرى فهل تحول ساسة الغرب إلى رجال دين غيبيين أيضا؟ كلّا وإنّما هو الشعور العام بضرورة الحكومة العالمية. إنّ المهدوية تظهر في الديانة اليهودية من خلال التبشير بالمسيح اليهودي، وعند العالم المسيحي بالمسيح نفسه عيسى بن مريم عليه السلام، وعند المسلمين بالمهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف الذي يعاونه المسيح عليه السلام، وتظهر المهدوية أيضا في الديانات الهندوسية والبوذية، وعند الحكماء والفلاسفة القدامى، والمحدثين مثل أفلاطون في الجمهورية، والفارابي في المدينة الفاضلة والملة الفاضلة، والفيلسوف الإنجليزي توماس مور في يوتيوبيا أو جزيرة طوبي، وأمثال هذه المدن الفاضلة والجمهوريات المثالية لا حصر لها. فهناك أتلانتا الجديدة لفرنسيس بيكون، والمدينة المسيحية ليوهان، ومدينة الشمس لتوماس

كامبلا، وجزيرة كونفوشيوس لحكيم الصين، وغيرها، والاسماء التي وضعوها لهذه الملة أو المدينة ليست خيالية تماما بل قائمة على تطورات يؤيدها العلم والدين والآثار، ويكمل الكاتب كلماته قائلاً: ويختلف اسم القائد الملهم الذي يقود هذه المدن عند الجميع، فهو عند توماس مور يوتوبوس العظيم واسمه مشتق من الجزيرة يوتيوبيا[1].

وبينما يتحدث منتظر انتبه لملامح وليد التي كانت تعطي انطباعا استهزائياً قد شدته نحوه وبدت ملامح التركيز على وجهه بائنة، وراح سرحانا متأملاً بهذا الكلام، وكأنما تحركت فطرته ودغدغت دفائن عقله.

قال وليد:

لكن العالم في هذه العصر وفي ظل التطور العلمي والتكنولوجي لا يحتاج إلى فكرة المنقذ، فالشعوب بازدهار ونمو وتقدم... قاطعته قائلاً عن أي ازدهار وتقدم تتكلم فاذا كنت قاصداً الجانب التكنلوجي والعلمي فإنّ النصوص دلت على أنَّ المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف سوف يأتي بأحدث العلوم المتطورة

1ـ الطور المهدوي، عالم سبيط النيلي، ص8ـ9.

والنافعة، واذا كنت تقصد الجانب الاقتصادي فأقول لك أنّ البيانات الاستقصائية الصادرة عن جهات مختصة تقول بان نسبة الفقر بتزايد في جميع البلدان، ولن اتطرق للأعداد ونسبة الفقر، أُريد منك أن تبحث بنفسك حتى ترى، أنّ القوائم شملت الدول العظمى، مثل الصين والولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، وغيرها من بقية الدول يعيش أفرادها الفقر والعوز، مع نمو بلدانها اقتصاديا، كذلك لو دققنا وبحثنا في جميع المسائل، وعلى كافة الأصعدة من قبيل العلوم والمعرفة، والصناعة، والأخلاق، والحكومات، والسياسات، نجد فيها عوزاً ونقصا ومشاكل واضطرابات، وصراعات، وظلم، وتعسف، وعدد ما شئت فلذلك كان ولا بدّ أن تتوحد جميع الأصناف تحت قيادة واعية وحكيمة جامعة لخبرات وأطوار الشعوب والحكومات، والتجارب السالفة، حيث ترسم هذه القيادة خارطة عامة تصحح فيها المسارات السياسية والاقتصادية، والمعرفية، والدينية، وغيرها، وسوف انقل بعض كلمات العلماء المشهورين الغربيين حول هذه القضية نظير قول العالم الفيزيائي المعروف

البرت اينشتاين صاحب النظرية النسبية حيث قال: إنّ اليوم الذي يسود العالم كله فيه السلام والصفاء ويكون الناس متحابين متآخين ليس ببعيد. وقال المفكر البريطاني برتراند راسل إنّ العالم في انتظار مصلح يوحده تحت لواء واحد وشعار واحد[1] . وأدق وأصرح من هذا وذاك ما قاله المفكر الايرلندي المشهور برنارد شو فقد بشر بصراحة بحتمية ظهور المصلح، وبلزوم أن يكون عمره طويلاً يسبق ظهوره بما يقترب من عقيدة الإمامية في طول عمر الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ويرى ذلك ضروريا لإقامة الدولة الموعودة قال في كتابه (الانسان السوبرمان) وحسب ما نقله الدكتور عباس محمود العقاد في كتابه عن برنارد شو في وصف المصلح العالمي بأنه: "إنسان حي ذو بنية جسدية صحيحة وطاقة عقلية خارقة ، إنسان أعلى يترقى إليه هذا الإنسان الأدنى بعد جهد طويل وأنّه يطول عمره حتى ينيف على ثلاثمائة سنة، ويستطيع أنّ ينتفع بما استجمعه من

1ـ المهدي الموعود ودفع الشبهات عنه، ص7.

أطوار العصور، وما استجمعه من أطوار حياته الطويلة"[1] . وقلما نجد أحد من العظماء على مر العصور لم يحاول تخيل المجتمع المثالي الذي يقوده رجل عظيم وحكيم يقود البشرية إلى الصلاح، والفلاح، حتى المعاصرون لا يختلفون عن سابقهم؛ فقد اقترح الطبيب الفرنسي كارل في عصر الذرة بأخذ نخبة من التلاميذ الأذكياء جداً لتعليمهم أنواع مختلفة من العلوم، وحرمانهم من اللهو، والعبث ليظهر منهم في الأقل شخص واحد يتقن جميع العلوم قادر على قيادة العالم[2] .

وأنهي كلامي معك يا وليد بطلب أريده منك وهو أن ترافقني في رحلة. رحلة نبحث فيها عن هذا المنقذ في جذور الفكر الإنساني والديني بأسره. إن أثبتنا لك أنّ فكرة المخلص ليست أسطورة شيعية أو وهماً إسلامياً، بل هي حتمية كونية تنتظرها الأرض بكل أديانها... فهل تفتح قلبك للحقيقة؟

---

1 ـ برنارد شو للدكتور عباس محمود العقاد، 124ـ 125.

2ـ الانسان ذلك المجهول.

صمت وليد طويلاً، صراعٌ مرير كان يدور خلف نظارته السميكة بين كبرياء الفيلسوف وصدق الباحث؛ أخيراً، أومأ برأسه وقال: أقبل التحدي سنبحث عن هذا المنقذ، ولنبدأ من معاقل الأديان الكبرى.

وهكذا، تشكل فريقنا الثلاثي حزمنا حقائبنا، وانطلقنا في رحلة لا تشبه رحلات السائحين، بل رحلة غواصين يبحثون عن لؤلؤة الحقيقة في محيطات التاريخ المتلاطمة.

وصلنا إلى المطار وركبنا الطائرة التي كانت متوجهة إلى روما، قال وليد وكان جالس بجوار منتظر أخبرني يا هادي عن المنقذ هل فعلاً كما يزعم بأنّه سوف يقود العالم بأسره؟ قلت: نعم هو كذلك بل إنَّ الاعتقاد بظهور المنقذ العظيم وفناء الظلم والجور عن الناس وإقامة حكومة الحق والعدل لا تقتصر على الشرقيين والمدارس الشرقية، بل هو اعتقاد عام وعالمي انعكست أبعاده في مبادئ الأقوام المختلفة وكل ذلك يفيد هذه الحقيقة وهي أنَّ لهذه العقيدة العريقة جذور في الفطرة البشرية وفي دعوة جميع الأنبياء، وقد ذكر يا صديقي في كتاب (إطلالة على الزعامة) ضمن بيان

وجود انتظار ظهور منقذ عظيم لدى مختلف المجتمعات الغربية واستفادة بعض الأفراد من هذا الانتظار العام، أسماء خمسة أفراد من الأدعياء نهضوا من بريطانيا هم: جيمس نايلور، ويوحنا سوثكات، وريتشارد برادرز، وجون نيكو لستام، وهنري جيمس برينس، كما نقل عن برنارد باربر عالم الاجتماع الأمريكي في رسالته (نهضة المنقذ) وجود مثل هذا الاعتقاد حتى لدى زنوج أمريكا إذ قال:

"إنَّ هذه العقيدة شائعة بين قبائل الزنوج الأمريكيين... أنَّه سيظهر يوماً ذلك الرجل ويدخلهم جنة الأرض وقد أحصى التأريخ لما قبل سنة 1890 أكثر من عشرين نوعاً من هذه النهضات، وحتى أنَّ آثار هذه العقيدة موجودة بين الشعوب الإسكندنافية والمكسيك وأمثالهم"[1].

ونفهم يا وليد من ذلك أنَّه ليس هناك منطقة معينة لهذا الانتظار وسوف نعرف غداً إن شاء الله من القس عن هذا الأمر في عقيدتهم.

1ـ الحكومة العالمية للإمام المهدي عليه السلام، ص49ـ 54.

كانت محطتنا الأولى: روما، وتحديداً حاضرة الفاتيكان. وقفنا في ساحة القديس بطرس، وسط حشود الزائرين، كان منتظر يتأمل العمارة المهيبة، بينما كان وليد يحمل نسخاً من الأناجيل بعهدها الجديد.

في إحدى القاعات الهادئة الملحقة بمكتبة الفاتيكان، حيث تعبق الأجواء برائحة المخطوطات القديمة، جلسنا نحن الثلاثة قبالة السيد بيل، القس والباحث اللاهوتي، افتتحتُ الحديث بعد مقدمات التعارف، وسألته بهدوء الباحث عن الحقيقة:

هل يتفضل السيد بيل ليلقي على مسامعنا ما قد ورد في المسيحية بهذا الصدد الذي اجتمعنا لأجله؟ وما هي حقيقة المخلّص في عقيدتكم؟

اعتدل السيد بيل في جلسته، وشبك أصابع يديه فوق الطاولة، وقال بنبرة يشوبها اليقين التام: نحن في المسيحية نصرح بالإيمان القاطع بحتمية عودة عيسى المسيح في آخر الزمان، سيأتي ليقود البشرية في ثورة عالمية كبرى، يعم بعدها الأمن والسلام كل أرجاء الأرض، ولتكونوا على بينة، فإنه

سيلجأ إلى القوة والسيف لإقامة هذه الدولة العالمية العادلة، ولن يكتفي بالموعظة حينها [1].

التفتُّ إلى وليد فرأيت عينيه تلمعان خلف نظارته. ففكرة استخدام القوة والسيف لإقامة العدل العالمي تضرب صميم الفكرة المادية التي كانت تفترض أنّ الأديان مجرد استسلام ورضوخ.

تدخل منتظر بعقليته الهندسية التي تبحث عن التوثيق الدقيق، وقال: هلا تنقل لنا، تفضلاً، ما قد ورد في الإنجيل نصاً حول هذه الأحداث؟

ابتسم السيد بيل، وسحب نسخة قديمة من العهد الجديد كانت أمامه، وقال: بكل سرور، لقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين وصف دقيق لتلك الأيام... استمعوا جيداً: **فإذا رأيتم المُخرِّب الشنيع الذي تكلّم عليه النبي دانيال قائماً في المكان المقدس، فليهرب إلى الجبال من كان عندئذ في اليهودية، ومن كان على السطح فلا ينزل ليأخذ ما في بيته، ومن كان في الحقل فلا يرتد إلى الوراء ليأخذ رداءه الويل للحوامل والمرضعات في**

1 ـ يستند هذا الفهم إلى ما أورده القس الألماني فندر في كتابه (ميزان الحق).

تلك الأيام... فستحدث عندئذ شدة عظيمة لم يحدث مثلها منذ بدء الخليقة إلى اليوم، ولن يحدث! ولو لم تُقصّر تلك الأيام لما نجا أحد من البشر، ولكن من أجل المختارين ستُقَصَّر تلك الأيام.

توقف السيد بيل لبرهة، ليدعنا نستوعب حجم الأهوال، ثم أكمل يقرأ النص الإنجيلي الذي يلامس جوهر فتنة آخر الزمان:

فإذا قال لكم عندئذ أحد من الناس: ها هو ذا المسيح هنا، بل هنا! فلا تصدقوه فيظهر مسحاء دجالون وأنبياء كذابون، يأتون بآيات عظيمة وأعاجيب حتى أنهم يُضلّون المختارين أنفسهم.

وهنا، التقت نظراتنا أنا ومنتظر ووليد؛ مسحاء دجالون وأنبياء كذابون يأتون بأعاجيب! أليس هذا هو الأعور الدجال ذاته الذي حذرتنا منه رواياتنا الإسلامية، والذي يأتي بفتنة عظيمة تزلزل إيمان المختارين؟

واصل القس بيل قراءته بصوت بات أكثر هدوء.

وعلى إثر الشدة في تلك الأيام، تظلم الشمس، والقمر لا يرسل ضوءه، وتتساقط النجوم من السماء، وتتزعزع قوات السماوات، وتظهر عندئذ في

السماء آية (ابن الإنسان)، فتنتحب جميع قبائل الأرض، وترى ابن الإنسان آتياً على غمام السماء في تمام العزة والجلال.. فإذا رأيتم هذه الأمور كلها فاعلموا أن ابن الإنسان قريب على الأبواب.

أغلق وليد دفتر ملاحظاته للحظة وسأل بفضول الفيلسوف:

متى يكون هذا الموعد تحديداً أيها السيد بيل؟

أجاب القس وهو ينظر في أعيننا النص الإنجيلي حاسم في هذا يقول:

«لحق أقول لكم: لن يزول هذا الجيل حتى تحدث هذه الأمور كلها. فأما ذلك اليوم وتلك الساعة فما من أحد يعلمها، لا ملائكة السماوات ولا الابن، إلا الأب وحده لذلك كونوا أنتم أيضاً مستعدين، ففي الساعة التي لا تتوقعونها يأتي ابن الإنسان»[1] .

ثم قلب السيد بيل بضع صفحات أخرى، وأردف قائلاً:

والوصية الأعظم لنا هي الانتظار الدائم فقد جاء في موضع آخر:

«ولتكن أوساطكم مشدودة، ولتكن سرجكم موقودة، وكونوا مثل

---

1 ـ العهد الجديد، ص 103-105، إنجيل متّى، الإصحاح 24: الآيات 15-44

رجال ينتظرون رجوع سيدهم من العرس، حتى إذا جاء وقرع الباب يفتحون له من وقتهم. طوبى لأولئك الخدم الذين إذا جاء سيدهم وجدهم ساهرين.. فكونوا أنتم أيضاً مستعدين، ففي الساعة التي لا تتوقعونها يأتي ابن الإنسان)) [1].

طوبى لمن وجدهم ساهرين مستعدين، ترددت هذه الكلمة في روحي كأنها جرس كنيسة يوقظ النيام؛ أغمضت عيني وتذكرت كيف كنت أقضي لياليّ ساهراً أناجي إمام زماني؛ المفهوم واحد، والرسالة السماوية واحدة !لقد تماهت كلمات الإنجيل مع أحاديث أئمتناعليهم السلام في ضرورة الترقب، وأن ظهوره سيكون بغتة كشهاب ثاقب، وأنّ من ينتظره كمن يمسك الجمر، وطوبى للمنتظرين في غيبته.

قال وليد بصوت خافت وهو يدون استنتاجه الأخير: الانتظار ليس حالة فراغ إذن.. إنه استعداد دائم، كما تُشد الأوساط وتوقد السرج؛ هذا

1 ـ إنجيل لوقا، الإصحاح 12: الآيات 35-40.

التطابق المذهل لا يمكن أن يكون نتاج صدفة تاريخية... إنها رسالة من مشكاة واحدة.

سجل وليد ملاحظاته بصمت، كان الجليد المحيط بعقله المادي يبدأ بالذوبان ببطء.

من روما، انتقلنا في أبحاثنا ونقاشاتنا نحو نصوص الديانة اليهودية؛ فقد عقدنا لقاءات مطولة في إحدى المكتبات الكبرى في نيويورك، حيث تتواجد أندر المخطوطات التوراتية، وجلسنا مع أحد الباحثين اليهود المتخصصين في الإسخاتولوجيا (علم آخر الزمان).

قال الباحث اليهودي وهو يقلب صفحات التوراة القديمة: نحن ننتظر المشيح (المسيح) من نسل داود؛ نعتقد أنه سيبني الهيكل، ويجمع تشتت اليهود، ويحكم الأمم بالعدل، حتى أنّ الذئب سيسكن مع الخروف، كما يقول النبي إشعياء. فتح لنا مزامير داود (الزبور)، الإصحاح السابع والثلاثين، وقرأ: **لأن عاملي الشر يقطعون، والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض... أما الودعاء فيرثون الأرض ويتلذذون في كثرة السلام.**

بعد إتمام كلامه أخرجت هاتفي، وقرأت الآية القرآنية الكريمة: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[1].

فخرجنا من عنده وقلت لوليد: التطابق هنا ليس صدفة يا وليد؛ اليهود حرفوا هوية هذا المصلح لجعله حصرياً لبني إسرائيل، والمسيحيون حصروه بعودة يسوع فقط، لكن الفكرة المحورية واحدة: دولة عدل إلهية شاملة تنهي مسيرة الظلم البشري؛ إن أئمتنا عليهم السلام أخبرونا أن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف إذا ظهر، سيستخرج التوراة والإنجيل الأصليين من غار في أنطاكية، وسيحاجج بهما أهل الكتاب، فيُسلمون أفواجاً لما يرونه من براهين ساطعة تتطابق مع ما في كتبهم غير المحرفة.

أغلق وليد دفتر ملاحظاته، ونظر إلينا من خلف عدستيه بنظرة مختلفة هذه المرة؛ لم تعد نظرة الفيلسوف المتعالي، بل نظرة الإنسان الذي أدرك أن الحقيقة أكبر من قوالب المادة، قال بصوت خافت: إذن... فكرة النهاية السعيدة للتاريخ ليست حكراً على الماركسية أو الشيوعية التي نادت

1ـ الأنبياء: 105.

بالمجتمع اللاطبقي، الفارق أنّ المادية أرادت بناء هذه الجنة بأدوات عمياء وبلا توجيه، بينما الأديان تؤكد أنّ هذه الجنة الأرضية تحتاج إلى قائد معصوم متصل بالسماء لضمان عدم انحرافها.

ربّت منتظر على كتف وليد مبتسماً: لقد بدأت تفكر كمهندس روحي يا صديقي التوجيه يحتاج إلى بوصلة، والبوصلة لا بد أن تكون دقيقة لا تخطئ.

وقفتُ وسحبت حقيبتي، وقلت لهما والحماس يتقد في صدري: لقد طفنا في أروقة أهل الكتاب، لكن هذا لا يكفي الفيلسوف الذي بداخل وليد. يجب أن نثبت له أن عطش البشرية للمنقذ موجود حتى في أقصى الشرق، بعيداً عن الديانات الثلاثة؛ غداً سنشد الرحال نحو حكماء الهند ومعابد اليابان، لنجد هناك أيضاً صدى لاسم إمامنا المخفي.

الفصل الخامس

حكماء الشرق.. من معابد الهندوس إلى أديرة البوذية

لم يكن انتقالنا من صخب نيويورك وعمارة روما الكلاسيكية إلى عمق الشرق مجرد تغيير في خطوط الطول والعرض، بل كان غوصاً في طبقات أخرى من الذاكرة البشرية كانت وجهتنا الهند، حيث تختلط روائح التوابل بدخان البخور، وتتداخل أصوات الباعة في الأسواق مع تراتيل الكهنة على ضفاف نهر الغانج.

كنت أمشي بين الجموع في مدينة فاراناسي العتيقة، أستشعر حركة عضلات ساقيّ بامتنان لا ينضب، وأتأمل هذه الملايين من البشر. وجوه متعبة، أجساد أنهكها الكدح، وعيون تنظر إلى السماء بلغة صامتة تبحث عن الخلاص.

قال منتظر وهو يمسك بجهاز تحديد المواقع في هاتفه ليرشدنا في الأزقة الضيقة: العقلية الشرقية تختلف تماماً عن الغربية يا هادي الغرب حصر فكرة الخلاص في إطار تاريخي محدد، لكن الشرق ينظر إلى الزمن كدورات وحلقات. دعنا نرى كيف تتشكل فكرة المنقذ في هذه المنظومة المعقدة.

وصلنا إلى معبد هندوسي قديم، حيث رتب لنا منتظر مسبقاً لقاءً مع أحد كبار حكماء البراهمة. كان رجلاً طاعناً في السن، يرتدي ثياباً زعفرانية بسيطة، ويجلس في فناء داخلي هادئ يعزله عن ضجيج الخارج.

بعد تبادل التحيات المقتضبة، بادر وليد بالسؤال المباشر، متخلياً عن مقدماته الفلسفية المعقدة التي كان يطرحها في الغرب: أيّها الحكيم، عالمنا اليوم يغرق في الفساد والحروب، والظلم بات قانوناً يُسن، إلى أين ينتهي هذا الانحدار البشري؟

أغمض الحكيم عينيه للحظات، ثم قال بصوت عميق يشوبه هدوء الجبال: نحن نعيش الآن في الكالي يوغا[1] (عصر الظلام والحديد)، عصر يبلغ فيه تدهور الأخلاق والروحانيات ذروته، حيث يحكم الملوك بالبطش، وتنتشر الرذيلة، ويُنسى الحق، لكن هذه ليست النهاية.

---

1 ـ كالي يوغا، أي «العهد الأسود أو عهد الحديد («هو آخر من أربع مراحل يمر بها العالم كجزء من دورة يوغا التي وصفتها الكتب المقدسة الهندية .الكالي يوغا هو الطور الرابع من دور الماها يوغا الذي يساوي بمجمله عشرة أضعاف هذا الطور.

عبد الواحد يحيى (2013) مليك العالم. ص. 103.

نصوصنا المقدسة في الـ (بورانا) تبشرنا بأن هذا الظلام سينقشع بظهور الأفاتار الأخير للإله فيشنو.. إنه كالكي.

توقف الحكيم قليلاً، ثم أردف: كالكي سيأتي في نهاية هذا العصر المظلم، راكباً جواداً أبيض، حاملاً سيفاً متوهجاً كالمذنب؛ لن يأتي ليعظ الظالمين، بل ليطهر الأرض بسيفه، يقضي على قوى الشر، ويعيد تأسيس الدارما (العدل والنظام الكوني)، لتبدأ دورة جديدة من النقاء[1] .

التفتُّ إلى وليد، فرأيت عينيه تتسعان خلف نظارته؛ كانت الصورة تتطابق بشكل مذهل مع ما نحمله في صدورنا قلت بصوت خافت: سيف متوهج، وجواد، وتطهير للأرض من الظلم ليعود العدل؟ ألا يذكرك هذا بشيء يا وليد؟ ألم نقرأ أن الموعود يخرج بالسيف ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً؟

1ـ الإشارة إلى كالكي في الهندوسية مأخوذة من استقراءات الباحثين (والتي أشار إليها السيد الشهيد الصدر في أبحاثه حول اليوم الموعود) لإثبات أن الإيمان بالمصلح العالمي فكرة فطرية عالمية لم تخلُ منها ديانة كبرى، حيث يمثل كالكي العدل القاطع الذي ينهي عصر الظلم.

ابتلع وليد ريقه، وأخرج دفتره الصغير ليدون ملاحظاته قائلاً: الأمر يتجاوز حدود التناص الأدبي. هذا اتفاق جوهري على آلية التغيير. المخلص هنا ليس مجرد نبي يعظ، بل هو قائد عسكري كوني يمتلك صلاحية التطهير الجذري.

ودعنا الحكيم الهندي، وانطلقنا في رحلتنا نحو أقصى الشرق، إلى اليابان . كان التباين بين قطار الشينكانسن (الرصاصة) فائق السرعة الذي استقليناه، وبين الأديرة البوذية القديمة المخبأة في جبال كيوتو، يمثل صراعاً بين قمة ما وصل إليه العقل المادي البشري، وعمق ما تتوق إليه الروح.

في أحد أديرة الزن الهادئة، وسط حدائق الصخور المرتبة بعناية فائقة، التقينا براهب بوذي شاب يجيد الإنجليزية كالحكيم الهندي، سأله منتظر بعقليته التي تبحث عن نقاط التقاطع في النظم الكبيرة: هل يعتقد البوذيون أن بوذا غوتاما هو الكلمة الأخيرة للبشرية؟ ماذا لو نسي الناس تعاليمه وعمّت الفوضى؟

ابتسم الراهب بسلام عجيب، وأجاب: الدارما (التعاليم) تتعرض للانحسار بمرور الزمن البشري، نحن لا نعتقد أننا تُرِكنا للضياع. عقيدتنا تنص بوضوح على مجيء مايتريا، بوذا المستقبل في نصوصنا، حين ينسى البشر طريق الحق، ويصل العالم إلى قمة الانحطاط، سيظهر مايتريا. هو ليس إلهاً يهبط، بل هو إنسان سيصل إلى التنوير الكامل، وسيقود البشرية جمعاء، في كل الأرض، ليؤسس عصراً من السلام المطلق والمحبة[1] .

1ـ شخصية مايتريا في البوذية تمثل الوجه الآخر للوعد الإلهي (الرحمة والهداية) هذا التطابق بين الأديان الوضعية (ذات الجذور المنسية) والأديان السماوية يؤكد قاعدة الحتمية التاريخية لانتصار الحق، وهي القاعدة التي نوقشت بعمق في كتاب (اليوم الموعود، بين الفكر المادي والديني).

سأل وليد باهتمام شديد: وما هو معنى اسم مايتريا؟ أجاب الراهب: الاسم مشتق من الكلمة السنسكريتية[1]، والتي تعني المحبة أو الرحمة الواسعة.

هنا، لم أستطع كتمان مشاعري نظرت إلى وليد ومنتظر، وهمست لهما بالآية الكريمة: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[2].

وقلت: إذا كان جده هو الرحمة المرسلة، فالحفيد هو امتداد هذه الرحمة التي ستشمل الأرض كلها؛ المخلص في البوذية يحمل صفة الرحمة العالمية، والمخلص في الهندوسية يحمل صفة العدل القاطع.

في طريق عودتنا إلى الفندق في طوكيو، كانت أضواء المدينة النيونية تتقاطع مع المطر الخفيف، جلسنا في بهو الفندق، وطلب منتظر الشاي الأخضر.

---

1 ـ السنسكريتية هي لغة هندية أوروبية قديمة، تُعد لغة مقدسة في الهندوسية والبوذية والجاينية. ويعود تاريخها لأكثر من 3500 عام، حيث كانت لغة العلم والأدب والفلسفة في الهند القديمة. وتُعرف بأنها أصل العديد من اللغات الهندية الحديثة.
كلمة (سنسكريت) تعني الشيء المُصنّع بدقة أو الكامل والمُهذّب.

2ـ الأنبياء: 107.

كان وليد صامتاً لفترة، يقلب صفحات دفتره الممتلئ بملاحظات من روما، نيويورك، فاراناسي، وكيوتو. ثم رفع رأسه، ونظر إلينا بوجه أشرق فيه نور اليقين، متخلصاً من عبء التعقيد الفلسفي الذي رافقه طويلاً.

قال وليد بهدوء الواثق: الآن اكتملت الصورة كنت أظن في الماضي أن فكرة المخلص هي حيلة سيكولوجية اخترعها المقهورون لتسكين آلامهم، أو يوتوبيا سياسية ابتدعها المفكرون؛ لكن ما رأيناه في هذه الرحلة يثبت العكس تماماً، فكرة المنقذ الموعود ليست مجرد فكرة دينية، بل هي شيفرة فطرية مغروسة في الوعي الجمعي للبشرية جمعاء.

وضع وليد يده على كتفي وتابع: إنّ اتفاق ثقافات متباعدة جغرافياً وتاريخياً، لا يجمعها نبي واحد ولا كتاب واحد، على حتمية وجود مصلح عالمي في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً، يثبت أن هذه الفكرة هي وعد إلهي تكويني، سرّبه الأنبياء الأوائل وتناقلته الأمّم، حتى وإن اختلفت الأسماء والرموز. الأرض كلها حاملة بهذا الوعد يا هادي.

ابتسم منتظر وقال: من وجهة نظر هندسية بحتة، إذا كانت كل هذه الأسهم المستقلة تشير إلى نفس النقطة المركزية، فإن تلك النقطة ليست سراباً، بل هي المركز الحقيقي للكون.

أخذتُ رشفة من الشاي الدافئ، وشعرت بأن روحي تعانق السماء فرحاً بانتصار الحقيقة في قلب وليد. قلت لهما: لقد أثبتنا أن البشرية جمعاء تنتظر رجلاً واحداً لكن الأسماء اختلطت عليهم، والرايات تشابهت الآن، يجب أن ننتقل من الإطار الإنساني العام، إلى الإطار الإسلامي الدقيق، علينا أن نعرف كيف حدد الإسلام هوية هذا المنقذ وملامحه.

نهضت واقفاً، وساقاي اللتان شفاهما الله تعالى ببركة صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف تمنحانني قوة لا تُقهر، وقلت: اجمعوا أمتعتكم يا رفاق، محطتنا القادمة هي أرض الكنانة، سنذهب إلى أروقة الأزهر في مصر، يجب أن نرى كيف حفظ إخوتنا في المذاهب الإسلامية الأخرى ذكر المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، لنجعل من الحقيقة خيوط شمس لا يمكن حجبها، قبل أن نبدأ رحلتنا الحقيقية للبحث عنه في واقعنا المظلم.

الفصل السادس

أروقة الأزهر وتجلي الحقيقة المهدوية

لم تكن القاهرة مجرد محطة عبور في رحلتنا، بل كانت البوابة التي سننتقل عبرها من فضاء المنقذ العالمي الواسع، إلى دائرة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف الإسلامي المحددة، كنا نمشي في أروقة الأزهر الشريف، ونشاهد أعمدته العتيقة وزواياه التي شهدت نقوش امتدت لعقود، كان وليد يمشي بخطوات أثقلها التفكير، بينما كان منتظر يتأمل الزخارف الهندسية التي تزين القباب، وكأنه يقرأ فيها معادلات التوحيد.

أما أنا، فكنت أشعر بأننا نقترب من نقطة الحسم، لقد طفنا العالم لنثبت لوليد أن الأرض كلها تنتظر رجلاً، وحان الوقت لنثبت له أن هذا الرجل له اسم، ونسب، وعنوان.

في إحدى الزوايا الهادئة للمسجد، التقينا بشيخ أزهري جليل، تغشاه سكينة العلماء، وتزينه لحية بيضاء زادته وقاراً، فقد رتّب لنا أحد الأصدقاء لقاء معه. رحب بنا بابتسامة مصرية دافئة، وبعد حديث مقتضب عن حال الأمة وتشتتها، دخل وليد في صلب الموضوع مباشرة.

قال وليد بتهذيب الواثق: يا فضيلة الشيخ، لقد تتبعنا فكرة المنقذ في الأديان السماوية والوضعية، ووجدناها حتمية كونية لكننا كمسلمين، كيف نحدد ملامح هذا المنقذ؟ هل فكرة المهدي مقتصرة على طائفة دون أخرى، أم هي عقيدة إسلامية أصيلة؟

ابتسم الشيخ، وقال بصوت رخيم:

يا عزيزي، من ظن أنّ المهدي خرافة طائفية فقد جهل تراث أمته، قضية المهدي عندنا تتجاوز حدود الظن إلى التواتر القطعي، لقد روى أصحاب السنن والمسانيد عن رسول الله ﷺ أحاديث لا تقبل الشك، مفادها أنه لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيته، يواطئ اسمه اسمه، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً[1] .

---

1 ـ إشارة إلى الحديث المتواتر عند الفريقين: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني... يواطئ اسمه اسمي، مروي في سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وغيرها من صحاح المسلمين.

التفتُّ إلى وليد الذي أخرج دفتره بسرعة.

سأل منتظر مستفهماً: وما هو نسبه الدقيق يا شيخنا؟ هل هو مجهول الهوية؟

أجاب الشيخ بيقين: كلا، نسبه كالشمس، الأحاديث الصحيحة تنص بوضوح على أنه من عترة النبيﷺ، من ولد فاطمة هو ليس قائداً عسكرياً يخرج بالصدفة، بل هو اصطفاء إلهي من الشجرة النبوية المباركة[1] .

وهنا، حان دوري لأطرح السؤال الفاصل، السؤال الذي يشكل المنعطف العقائدي الأهم.

قلت بصوت خافت ولكن مسموع: يا فضيلة الشيخ، الأمة متفقة إذن على ظهوره، وعلى نسبه الفاطمي، وعلى دوره الكوني؛ لكن... هل هو رجل سيولد في آخر الزمان، أم هو مولود حي يعيش بيننا، يحفظه الله كما حفظ الخضر وعيسى، وينتظر الإذن بالظهور؟

---

1 ـ إشارة إلى الحديث: المهدي من عترتي من ولد فاطمة؛ مروي في سنن أبي داود، وابن ماجة، ومستدرك الحاكم.

سكت الشيخ قليلاً، وتنهد تنهيدة عميقة، ثم قال بإنصاف العالم الذي لا يخشى الحقيقة: هنا مكمن الخلاف بين المدارس الإسلامية يا ولدي، الرأي السائد في مدارسنا أنه سيولد.

ولكن... الأمانة العلمية تقتضي أن أقول لكم إنّ كبار علمائنا وعارفينا لم ينكروا الرأي الآخر، هناك بعض كبار أئمة السنة، من المحدثين والفقهاء وأقطاب التصوف، أقروا واعترفوا بأن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري، وأنه مولود وموجود، وأنّ الله يمد في عمره لحكمة يعلمها، كما مد في عمر الخضر عليه السلام[1].

التقط وليد هذه الكلمة كمن يلتقط طوق النجاة؛ خلع نظّارته، ونظر إلينا بعينين تلمعان بالدموع، لم يعد هناك مجال للمكابرة.

---

1 ـ صرح العشرات من علماء أهل السنة بولادة الإمام المهدي عليه السلام وكونه ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، منهم: ابن طلحة الشافعي في (مطالب السؤول)، والسبط ابن الجوزي في (تذكرة الخواص)، والقندوزي الحنفي في (ينابيع المودة)، وابن حجر الهيثمي في بعض إشاراته، وابن صباغ المالكي في (الفصول المهمة)، وقد وثق السيد الشهيد محمد الصدر في كتابه (تاريخ الغيبة) العشرات من هذه المصادر السنية التي تقر بولادته وبقائه.

قال وليد بصوت متهدج، يوجه كلامه لي ولمنتظر: الآن تطابقت القطع كلها، العقل البشري يطلب موجّهاً، والأديان تبشر بمخلص، والإسلام يحدد هويته، والعقل السليم يرفض أن تُترك الأرض في أي لحظة دون حجة حيّ يشهد عليها إذا كان المخلص حياً يُرزق، يراقبنا ونراقبه، يشعر بآلامنا ويدعو لنا، فإن الانتظار ليس حالة سلبية لشيء معدوم، بل هو ارتباط روحي بقائد موجود!

في ذلك المساء، جلسنا نحن الثلاثة على ضفاف النيل، كانت مياه النهر تنساب بهدوء، تعكس أضواء القاهرة التي لا تنام.

كان وليد يمزق بعض الأوراق القديمة من دفتره، أوراقاً كانت تحمل نظريات مادية جافة، ويرميها في الماء لتجرفها الأمواج. لم يكن يلوم نفسه بجلدٍ الذات، بل كان يبتسم ابتسامة من أفاق من غيبوبة طويلة.

قال بهدوء: الديالكتيك المادي كان يبحث عن الكمال في المادة العمياء، واليوم، وجدت الكمال في الإرادة الإلهية الحية، أنا معكم يا هادي قلبي وعقلي وروحي... فداءٌ لمن ننتظره.

وضع منتظر يده على كتف وليد وقال: هندسة الكون اكتملت في عقولنا الآن. نحن لسنا مجرد باحثين بعد اليوم، نحن فريق تمهيد.

نظرتُ إليهما، إلى العقل الهندسي الفذ، وإلى الفيلسوف المستنير، وشعرت بأن السماء قد ساقت إليّ أعظم سلاحين يمكن أن أحملهما في هذه الرحلة قلت لهما، والنار تتقد في صدري: الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف ليس غائباً بمعنى أنه يعيش في سحابة فوق الأرض، هو يعيش بيننا، يمشي في أسواقنا، ويقف في مواسم حجّنا، إنه يعمل بالخفاء، ومعه شبكة معقدة من الرجال الخُلّص الأبدال، والنجباء، والعصائب...[1] إذا أردنا أن نمهد له، يجب أن نبحث عن أثر هذه الخطى الخفية، يجب أن نكون جزءاً من جهازه السري الذي يحفظ بيضة الإسلام بانتظار ساعة الصفر.

---

1 ـ ومن نص طويل (إذا كان عند خروج القائم، ينادي مناد من السماء أيها الناس قطع عنكم مدة الجبارين، وولي الامر خير أمة محمد صلى الله عليه وآله فالحقوا بمكة، فيخرج أليه النجباء من مصر وأشباههم، والابدال من الشام وأشباههم، وعصائب العراق وعصائب أهل المشرق، رهبان بالليل ليوث بالنهار، كأن قلوبهم زبر الحديد، فيبايعونه بين الركن والمقام زمزم والمقام. معجم أحاديث الإمام المهدي ج1 ص 355 ح 235.

تعاهدنا في تلك الليلة على ضفاف النيل، تعاهدنا بدمائنا وأرواحنا ألا يقر لنا قرار، ولا يغمض لنا جفن، حتى نضع أيدينا في يد ولي الله، أو نُقتل دون ذلك، لقد انتهت رحلة البحث عن الفكرة، وبدأت رحلة البحث عن القائد.

الفصل السابع

شبكة الغيب.. الخضر والأبدال والعصائب

عدنا من القاهرة إلى النجف الأشرف، ولم نعد أولئك الشبان الذين يطاردون أشباح الشك في أروقة الفلسفة، بل تحولنا إلى جنودٍ يبحثون عن معسكر قائدهم. لقد أدركنا أن الأرض لا تُدار بقرارات الساسة في الغرف المغلقة فحسب، بل تُدار من غرفة عمليات غيبية كبرى، يتولى قيادتها رجلٌ حيّ، يرى ما لا نرى، ويعمل تحت يد الغيب الإلهي.

تحولت شقة منتظر إلى ما يشبه خلية النحل، الشاشات التي كانت تعرض سابقاً معادلات هندسية وخرائط مشاريع مادية، باتت اليوم تعرض تتبعاً للأحداث العالمية الكبرى. حروب تُطفأ فجأة، مؤامرات تُحاك لإبادة أمة بأكملها فتتبدد لأسباب غير منطقية، وتيارات فكرية خبيثة تنكسر في أوج قوتها.

وقف منتظر أمام خريطة العالم الرقمية، وعيناه تلمعان بذكاء تحليلي، وقال: راقبوا حركة التاريخ المعاصر، من الناحية الإحصائية والجيوسياسية، كان يُفترض أن يُسحق هذا الدين وتُمحى هويته تماماً أمام الآلة الاستكبارية الهائلة لكن، هناك دائماً متغيرٌ خفي يتدخل في اللحظة

الحرجة. أزمات كبرى تنحرف عن مسارها التدميري بشعرة، إنها ليست صدفة هناك منظومة تدير هذا التوازن وتحمي بيضة الإسلام.

كان وليد يجلس على الأريكة المجاورة، يقلب أوراقه التي دون فيها خلاصات أبحاثنا، وقد استبدل نظرياته المادية بيقين ناصع، دون أن يفقد قدرته الفذة على الاستقراء والتحليل؛ قال وليد بهدوء: المنظومة التي تتحدث عنها يا منتظر ليست مجرد استنتاج رياضي، بل هي حقيقة نصية الإمام لا يعمل في الساحة وحيداً، ولا يعيش في عزلة مطلقة في سرداب مظلم كما يتخيل البسطاء، نصوصنا صريحة بأن له في غيبته أنيساً ورفيقاً يرفع عنه وحشة العزلة إنه العبد الصالح الخضر عليه السلام.

التفتُّ إليهما، والنبض يتسارع في عروقي، فمجرد ذكر اسم الخضر يفتح في الروح نوافذ من المهابة قلت: الخضر الذي خرق السفينة لإنقاذها، وبنى الجدار ليحفظ الكنز هو الأستاذ الأول في مدرسة العمل الخفي. إذن، الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف والخضر يعملان معاً لخرق سفن المؤامرات وبناء جدران الحماية لهذه الأمة!

أومأ وليد برأسه بقوة، وتابع قائلاً: بالضبط! ولكن الأمر لا يتوقف عند الخضر، الإمام يمتلك شبكة معقدة جداً، تتكون من بشر عاديين، يأكلون ويمشون في الأسواق، لكنهم أوتوا من اليقين والطهارة ما جعلهم أهلاً لتحمل سر السماء، إنهم رجال الغيب الموزعون في الأرض، الروايات سمتهم لنا لتخبرنا أن المشروع مستمر.

نهض وليد ووقف بجوار الخريطة، وأشار إلى العراق، والشام، ومصر، وقال بصوت يحمل نبرة الجلال: هؤلاء هم الهيكل التنظيمي لدولة الغيبة في الشام هناك الأبدال؛ سُميوا بذلك لأن أحدهم إذا مات أبدله الله بآخر، وهم أوتاد الأرض هناك، وفي العراق توجد العصائب، عصبة من الرجال اشتبكت قلوبهم على الحق كاشتباك الأصابع، لا تكسرهم الفتن، وفي مصر يوجد النجباء صفوة من العقول والقلوب المخلصة، وهناك غيرهم كالسياح والأخيار... هؤلاء ليسوا ملائكة يا هادي، هؤلاء رجال

اختاروا أن يكونوا جنوداً مجهولين، يمهدون الأرض، ويدفعون البلاء بأمر إمامهم[1].

تسمرتُ في مكاني، ونظرت إلى يديّ وإلى ساقيّ اللتين كتب لهما الإمام عمراً جديداً، قلت بصوت يختلج بالشوق: إذا كانت هذه الشبكة موجودة وتعمل بيننا، فكيف نصل إليهم؟ كيف نضع أيدينا في أيديهم لنعمل معاً؟ لقد تركنا الدنيا وراء ظهورنا، ولا نريد من هذه الحياة سوى أن نكون خيطاً صغيراً في هذه الشبكة العظيمة.

ابتسم منتظر ابتسامة هادئة، وقال: يا هادي، الشبكات السرية لا تُعلن عن أرقام هواتفها أو عناوين مقارها، في عالم الاستخبارات البشرية، أنت تبحث عن القائد لتنضم إليه، أما في عالم الغيب، فالأمر معكوس تماماً.

---

1 ـ وردت أحاديث مستفيضة في كتب الفريقين حول جهاز الإمام الخفي وأعوانه في الغيبة والظهور، ففي مصادرنا (مثل كمال الدين للصدوق، والغيبة للطوسي، والغيبة للنعماني) نصوص تؤكد أن الخضر عليه السلام هو المؤنس للإمام في وحشته. كما تضافرت الروايات حول تشكيلات (الأبدال في الشام، والعصائب في العراق، والنجباء في مصر) الذين يكونون طليعة أنصاره، وهي مروية عن الإمام علي عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام.

سألته باستغراب: معكوس؟ كيف؟ أجاب منتظر: أنت لا تبحث عنهم... بل ترتقي ليجدوك هم! التردد الذي تعمل به شبكة الإمام هو التقوى الخالصة والعمل الميداني، عندما نطهر ذواتنا، ونعمل لخدمة الأمة وقضاء حوائج الناس والدفاع عن العقيدة، فإننا نصدر إشارة ضوئية في عالم الروح تلتقط العصائب والأبدال هذه الإشارة، وحين يرى الإمام أننا بلغنا درجة الاضطرار والصدق المطلق، سيفتح لنا باب الاتصال، العمل من أجل المهدي عجل الله فرجه الشريف، هو عنوانك للوصول إليه.

أدركنا في تلك اللحظة أن الانتظار ليس جلوساً سلبياً نرقب فيه السماء، بل هو عمل دؤوب وحركة لا تهدأ، بدأنا نحن الثلاثة نتحرك في مساراتنا منتظر يوظف عقله وتقنياته لصد الشبهات الفكرية في الفضاء الإعلامي، ووليد ينخرط في مجاميع الشباب المخدوعين ليعيد صياغة وعيهم بالحجة الدامغة، وأنا هادي، أخذت أتحرك بين الناس، أساعد المحتاجين، وأبث في قلوب المكسورين أنّ هناك أباً رحيماً يراقبهم وينتظر منهم أن يتهيأوا.

وفي إحدى الليالي الممطرة في النجف التي جعلناها محط عملنا التمهيدي وانتظارنا، كنت عائداً من قضاء حاجة لعائلة فقيرة في أطراف المدينة، كان الشارع شبه خالٍ. فجأة، تعطلت سيارتي وقفت تحت المطر أحاول إصلاح العطل بلا جدوى.

اقترب مني رجل مسن، يرتدي عباءة بسيطة، وتغطي وجهه ملامح سكينة غريبة لم يقل شيئاً، مد يده إلى محرك السيارة، وأصلح قطعة صغيرة بحركة خبيرة، اشتغل المحرك فوراً التفتُّ إليه لأشكره، فوضع يده على كتفي، ونظر في عيني بنظرة اخترقت روحي إلى أعماقها، وقال بلهجة هادئة لا أثر فيها لرجفة البرد: يا بني سعيكم مشكور، وعملكم مرصود، ورفيقاك في عين الرعاية، لا تستعجلوا اللقاء، فالمهمة الكبرى لم تبدأ بعد، استعدوا...

فإن شرارة الفتن توشك أن تندلع، وما بعد نار المشرق إلا اصطكاك الرايات.

قبل أن أستوعب كلامه وأسأله عن هويته وكيف عرف بأمر رفيقيّ، التفت ليغادر، مشى خطوات قليلة في الضباب، وحين ركضت خلفه لأستوقفه، كان الشارع فارغاً تماماً وكأنه تبخر في المطر.

عدت إلى منتظر ووليد، وأنا أرتجف، ليس من برد الشتاء، بل من هيبة الرسالة. قصصت عليهما ما حدث، ساد صمت جليل في الغرفة خلع وليد نظارته وقال بصوت يقطر يقيناً: لقد وصلت الإشارة، نحن تحت الرقابة المهدوية المباشرة ولكن ماذا يقصد بنار المشرق واصطكاك الرايات؟ أجاب منتظر وهو يفتح خرائط جديدة على شاشة حاسوبه، وقد تحولت ملامحه إلى الجدية العسكرية: يقصد أن مرحلة العمل الخفي توشك أن تنتهي، العالم يقترب من نقطة الغليان، العلامات الكبرى التي قرأنا عنها ستبدأ بالتحقق تباعاً، استعدوا يا إخوتي، فما بعد هذا الهدوء إلا زلازل الأرض ونارٌ تخرج من أذربيجان لا يقوم لها شيء[1].

1 ـ عن الإمام الصادق عليه السلام: لا بد لنار من أذربيجان لا يقوم لها شيء، وإذا كان ذلك فكونوا أحلاس بيوتكم وألبدوا ما ألبدنا. الغيبة للشيخ النعماني: ص٢٠٠.

الفصل الثامن

شرارة الفتن.. نار أذربيجان وزلازل

لم تكن الأيام التي تلت لقاءنا بذاك الرجل المجهول تحت المطر تمضي بإيقاعها المعتاد، لقد تحول الهواء نفسه إلى نذير صامت، وكأن الأرض تحبس أنفاسها قبل أن تطلق صرختها المكتومة، غرفة منتظر لم تعد مجرد شقة سكنية في النجف، بل استحالت إلى مركز رصد عالمي، تضج شاشاته بمؤشرات لا تقيس الأسواق المالية، بل تقيس حرارة التاريخ وهو يغلي ليبلغ نقطة الانفجار.

كنت أجلس في الزاوية، أراقب الشاشات التي تومض باللون الأحمر تباعاً لم تكن نشرات الأخبار تتحدث سوى عن الكوارث. قال منتظر وهو يمسح وجهه المنهك، وعيناه لا تفارقان الأخبار التي تتصاعد بجنون: راقبوا حركة القشرة الأرضية، والأحزمة الزلزالية خلال الأشهر القليلة الماضية، سجلت المراكز الجيولوجية نشاطاً غير مسبوق، زلازل تضرب الشرق والغرب، خسوفات أرضية مفاجئة، فيضانات تغرق مقرىً بأكملها، من الناحية العلمية الأرض تمر باضطراب جيولوجي ومناخي عنيف، وكأنها ترفض استقرارها المعهود.

كان وليد يقف خلفه، يراقب الأخبار، وقد اكتست ملامحه بهدوء الحكيم الذي يرى ما وراء الحدث المادي لم يعد ذلك الفيلسوف الذي يسخر من الغيب، بل صار العقل الذي يربط حركة الطبيعة بنصوص السماء. قال وليد بصوت هادئ: ما تراه من زلازل مادية يا منتظر، ما هو إلا انعكاس للزلازل السياسية والاجتماعية. لقد نصت مروياتنا بوضوح تام على أن سنة الظهور يسبقها اختلاف كثير في الناس، وزلازل، وفتن تصيب الأرض، الطبيعة تتناغم مع الغضب الإلهي، انظروا إلى الخوف الذي يجتاح العالم. أوبئة مستحدثة، رعب من حرب عالمية، انهيار للعملات، وجوع يطرق أبواب دول كانت تدّعي الوفرة.

أومأت برأسي، وكلمات القرآن تتردد في صدري، فقرأتها بصوت مسموع:{ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}**[1] وعن الامام الصادق عليه السلام قال:

1 ـ سورة البقرة: آية 155.

((والله لتمحصن والله لتميزن والله لتغربلن حتى لا يبقى منكم إلا الأندر..)) [1]

قلت لهما: هذا هو التمحيص الأخير. السماء تغربل سكان الأرض لتسقط الأقنعة لكن.. متى تأتي العلامة الفارقة؟ متى نعرف أن هذا الخراب هو مخاض الولادة وليس مجرد انهيار عبثي؟

لم أكد أنهي جملتي، حتى انطلق جرس الإنذار المبرمج في أحد حواسيب منتظر، والمخصص لالتقاط الكلمات المفتاحية من وكالات الأنباء العالمية. وقف منتظر أمام الشاشة الرئيسية، وقام بتكبير الصورة لتملأ الجدار.

عاجل: اشتعال نار مصدرها إقليم أذربيجان واندلاع حرائق هائلة لا يمكن السيطرة عليها. القوى الإقليمية تتدخل، ودمار كبير شمل مناطق كثيرة.

---

1 ـ تفسير العياشي: 1، 199/ 146.

كانت ألسنة اللهب المتصاعدة عبر الشاشات تبدو وكأنها نار قادمة من الجحيم، تأكل الأخضر واليابس. الجيوش تتصادم بوحشية، والأسلحة التدميرية تحيل السماء إلى ليلٍ أحمر.

نهضتُ من مكاني، وسرت في جسدي قشعريرة الاستنفار. هل حانت لحظة رفع السلاح؟ هل يجب أن نتحرك لنصرة المظلومين هناك، أو للالتحاق بإحدى الرايات التي بدأت ترفع شعارات دينية لتجييش الشباب؟ قلت بحماس لا يخلو من التسرع: إذن، لقد بدأت! النار اشتعلت يا إخوتي. هل نجهز أنفسنا للرحيل؟ هناك من يدعو للنفير العام الآن لدعم الفصائل هناك!

التفت إليّ وليد، ووضع يده على صدري لتهدئة روعي، وكانت عيناه تشعان بصرامة العارف الذي يحمي زميله من الانزلاق، قال بحزم: إياك يا هادي! إياك أن تستفزك العاطفة فتضيع البوصلة، العقل المادي كان سيقول لك: اذهب وقاتل لتثبت وجودك. لكن العقل الولائي يقول:

قف حيث أمرك إمامك! لقد نصت الأحاديث الشريفة بحرفيتها على هذا الحدث لتمنعنا من المحرقة المجانية.

سحب وليد لوحاً إلكترونياً، وعرض أمامي نصاً أضاء روحي المندفعة بماء الحكمة، وقرأه عليّ بصوت جلي: لا بد من نار من أذربيجان لا يقوم لها شيء، فإذا كان ذلك فكونوا احلاس بيوتكم - أي الزموا بيوتكم - وابقوا ما بقينا، فإذا تحرك متحرّكنا فاسعوا إليه ولو حَبواً[1].

صمت منتظر قليلاً، ثم بدأ يحلل الموقف بعقليته الاستراتيجية الفذة: هذا توجيه عسكري وأمني من أعلى طراز! النار التي لا يقوم لها شيء تعني حرباً مدمرة، تستهلك طاقات الدول المشتركة فيها. لو انجررنا إلى هذا الصراع، لاستُنزفت طاقاتنا، وقُتل خيرة شبابنا في معارك عمياء لا تخدم مشروع الظهور. الإمام يطلب منا المكوث الاستراتيجي، حفظ القوة وتخزينها لحين خروج الراية المهدية.

---

1 ـ حديث (نار أذربيجان) هو من الأحاديث الصحيحة والمعتبرة المروية عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد أورده النعماني في (الغيبة: ص 194، ح 5).

جلستُ على الأريكة، وأخذت نفساً عميقاً. كان وليد محقاً، وكان منتظر دقيقاً؛ الاندفاع العاطفي بلا بصيرة هو انتحار في زمن الفتن الكبرى قلت لهما، وأنا أراقب ألسنة اللهب التي لا تزال تأكل الشاشات: إذن... هو مخاضٌ مؤلم يجب أن نرقبه بصمت نحفظ فيه دماءنا وعقيدتنا، وندعو للمستضعفين، ولا نتحرك حتى تتضح معالم الرايات ولكن هل سنبقى مكتوفي الأيدي طويلاً؟ ألا توجد راية حق تسبق الظهور لنلتحق بها؟

أغلق وليد اللوح الإلكتروني، ونظر من نافذة الغرفة نحو الأفق الشرقي، حيث كانت شمس الظهيرة تضرب قباب النجف الذهبية.

قال بصوت يمزج بين الترقب واليقين: بلى يا هادي حين تتسع دائرة الخوف والجوع، وتتخبط الدول، سيقوم رجال كزبر الحديد، قلوبهم كالجبال لا تحركها العواصف رجال من جهة المشرق، يطلبون الحق فلا يعطونه، فيضعون سيوفهم على عواتقهم.

التفت منتظر نحو الخريطة، وسلط الضوء على منطقة جغرافية تمتد نحو المشرق (إيران)، وقال: الفتن الآن تعتصر الأرض، والنار في أذربيجان

مجرد شرارة الخطوة القادمة هي خروج رايات المشرق الموطئة؛ استعدوا يا إخوتي فالأحداث لن تمشي بعد اليوم، بل ستركض ركضاً.

نظرت إلى ساقيّ، اللتين استعدتا للركض في دروب التمهيد.

كنت أعلم أن المكوث في البيوت لا يعني النوم، بل يعني المرابطة وشحذ البصائر الأرض تحترق، والزلازل تدك حصون الظالمين، وفي خضم هذا الدمار... هناك أمة مقاومة صنعتها المعاناة، تستعد لرفع راية سوداء لا تُنكس أبداً.

الفصل التاسع

رايات المشرق.. سواعد إيران الممهدة

لم تكد نيران المشرق تخمد، حتى بدأت ملامح الخارطة العالمية تتغير بسرعة أذهلت مراكز الأبحاث الاستراتيجية. في شقة منتظر، كانت الشاشات تنقل مشاهد حية لاضطرابات جيوسياسية عميقة العالم الغربي كان يترنح تحت وطأة أزماته الاقتصادية، بينما كانت أنظارنا نحن الثلاثة تتجه نحو عمق المشرق نحو إيران، نترقب الوعد الذي طالما قرأناه في متون الروايات.

كنت أجلس متأملاً خريطة الشرق الأوسط فجأة، قطع منتظر الصمت بضربة حماسية على لوحة المفاتيح، وقام بتكبير الخريطة لتشمل رقعة جغرافية تمتد من طهران وقم حتى أقاصي خراسان، وقال وعيناه تلمعان ببريق الاكتشاف: انظروا إلى هذه التقارير! هناك حراك عسكري غير مسبوق في إيران. القوى العظمى تحاول تطويقهم منذ عقود، تفرض عليهم أقسى عقوبات الحصار والتجويع، تمنع عنهم أبسط حقوقهم، لكنهم يزدادون صلابة، إنهم يبنون ترسانة مذهلة ليس للهيمنة، بل لعقيدة راسخة.

اقترب وليد، ووضع كوب القهوة من يده، متأملاً الشاشات التي تعرض حشوداً مليونية في شوارع المدن الإيرانية تهتف بنداء يا مهدي، وقيادات تتحدث بلغة اليقين لا بلغة الدبلوماسية المداهنة. قال وليد بصوت هادئ، متخلياً عن بقايا دهشته القديمة: المادية التاريخية كانت تفترض أن الحصار الاقتصادي الطويل كفيل بإسقاط أي دولة، لأن الإنسان في النهاية – كما يدّعون – تحركه معدته؛ لكن الإيرانيين يكسرون القاعدة. إنهم يقاتلون ويصمدون من أجل غيبٍ يرونه أوضح من الشمس.

التفتُّ إليهما، والكلمات النبوية تتدفق إلى لساني وكأنني أقرؤها من كتاب مفتوح في صدري: هذا هو مصداق ما أخبرنا به الأئمة الصادقون يا وليد لقد طُلب منهم التنازل، فرفضوا يطلبون الحق فلا يُعطونه، ثم يطلبونه فلا يُعطونه، لقد استنفدوا كل السبل مع قوى الاستكبار لرفع الحصار

والظلم، فماذا فعلوا؟ فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم، فها هم يجهزون قدراتهم، ويعدون عدتهم، ولا يرهبهم نباح العالم[1].

قال منتظر بنبرة الخبير العسكري: من الناحية الاستراتيجية، هذه القوة المشرقية الإيرانية لا تبحث عن إمبراطورية فارسية جديدة كما يروج الغرب انظروا إلى أدبياتهم، إنهم يجهزون الأرض لتسليم الراية.

قادتهم يعلنون صراحة أنهم مجرد موطّئين لقائد أعظم، وهذا ما يربك استخبارات العدو، فهم يواجهون جيشاً لا يبحث قادته عن مجد شخصي، بل عن مجد إمامهم المنتظر.

شعرت بنار الشوق تتقد في أضلعي؛ وقفتُ أمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً. كنت أريد أن أكون معهم، أن أضع يدي في أيديهم؛ قلت بحماس: دعونا نلتحق بهم في إيران! هؤلاء هم من قيل فيهم إنهم أهل المشرق، وأن قلوبهم كزبر الحديد، لا تعثرهم الرياح العواصف، لا يملون من الحرب

1ـ عن الإمام الباقر عليه السلام: ((كأني بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحق فلا يعطونه، ثم يطلبونه فلا يعطونه، فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم...))، وهي تشير إلى حركة سياسية وعسكرية ممهدة في المشرق تتحدى الاستكبار العالمي وتوطئ للمهدي عجل الله فرجه الشريف

ولا يجبنون، وعلى الله يتوكلون؛ إذا كانت هذه رايات هدى ممهدة، فلماذا نجلس هنا في النجف نراقب الشاشات؟

وضع وليد يده على كتفي، وابتسم ابتسامة أخوية تفيض حكمة، وقال : لا تتعجل يا هادي تذكر ما قاله لنا ذلك الرجل المجهول تحت المطر: استعدوا، فما بعد نار المشرق إلا اصطكاك الرايات؛ الإيرانيون هم جبهة المشرق الصلبة، ولكن ساحة الحسم ليست هناك في طهران أو خراسان. ساحة الحسم هنا في العراق، وفي الشام الرايات السود المشرقية ستزحف إلينا في الوقت المعلوم لنصرة الإمام، دورنا نحن أن نهيئ الأرض هنا لاستقبالهم، وأن نكون نقطة الارتكاز عندما تبدأ العاصفة.

عاد منتظر إلى حاسوبه، وتغيرت ملامحه فجأة؛ انحسرت ابتسامته، وحلت محلها تقطيبة قلق عميق. وليد محق يا هادي علينا أن نبقى متيقظين هنا، لأن المشرق ليس الجبهة الوحيدة التي تتحرك انظروا إلى الشام...

نقل منتظر العرض على الشاشة الكبيرة إلى خريطة بلاد الشام كانت المؤشرات تومض بألوان حمراء وسوداء متداخلة، قال منتظر بصوت

يحمل نذير شؤم: بينما تجهز إيران رايات الهدى، يصنع الغرب وقوى الضلال وحشهم القادم الاستخبارات الغربية واليهودية تغذي الآن فصائل متناحرة في الشام، الفوضى هناك لم تعد مجرد حرب أهلية، بل تحولت إلى صراع رايات، الأبقع والأصهب يطحنان بعضهما البعض، والبلد يتمزق.

وقعت عيناي على الشاشة، ورأيت مشاهد الدمار التي تعتصر القلب. دماء تُسفك، وحواضر تُدمر، وفتنة لا يُعرف فيها القاتل من المقتول، قلت بصوت خافت: الرايات الثلاث... إذن، نحن نقترب من خروج الملعون. نحن نقترب من خروج السفياني.

أومأ وليد برأسه، وقال وهو يخلع نظارته ليمسحها بطرف قميصه: نعم قوى الاستكبار تدرك أن رايات إيران الموطئة تقترب من نقطة التماس، وأن العراق هو قلب المشروع المهدوي لذلك، لابد لهم من زرع حائط صد عقائدي وعسكري متوحش في الشام، لقطع الطريق على الممهدين

القادمين من الشرق، ولتدمير حاضرة التشيع. السفياني ليس مجرد طاغية محلي، بل هو رأس حربة المشروع المادي المضاد للمشروع الإلهي.

في تلك اللحظة، أدركت أننا دخلنا في عين العاصفة؛ بل باتت القضية مسألة بقاء، كان علينا أن نستعد لمواجهة أعتى آلة قتل عرفها التاريخ الحديث، آلة لا ترحم شيخاً ولا طفلاً، سترفع راية الصليب الأحمر أو التحالف الغربي في الخفاء، وترفع شعارات دينية مزيفة في العلن لقتال رايات الهدى.

نظرت إلى رفيقيّ، المهندس الذي يقرأ لغة الأرض، والفيلسوف الذي أذعن للغة السماء وقلت لهما: إذن، رياح الشام السموم قد بدأت تهب دعوهم يجمعوا مكرهم، ودعوا السفياني يخرج من وادي اليابس فنحن في النجف لدينا وعْدٌ لا يُخلف، وإخوة في المشرق قادمون، وسيوفٌ لم تُستل بعد.

الفصل العاشر

عاصفة الشام والراية الحمراء

لم يكن خفياً على أحد أن مركز الثقل في العالم قد بدأ ينزاح نحو قلب الشرق الأوسط بعد أن راقبنا اصطكاك الروم والترك، بدأت الغيوم السوداء تتجمع فوق سماء بلاد الشام. كنت أجلس مع منتظر في غرفتي بالنجف الأشرف، نتابع الأخبار التي باتت لا تبث سوى المآسي كانت الشام تعيش مخاضاً عسيراً، أزمة اقتصادية خانقة، وحصاراً يمنع عنهم الدينار والمد، وتلك الفتنة التي وصفها لنا رسول اللهﷺ بأنها تمخض الشام مخض الماء في القربة، فتنة فلسطين، كانت تتغلغل في كل زاوية وبيت[1].

في الأثناء ظهر على الشاشة خبر زلزل وكالات الأنباء: هزة أرضية عنيفة تضرب العاصمة السورية دمشق وضواحيها، انهيار أجزاء من الجانب الغربي للمسجد الأموي، وأنباء عن خسف يبتلع قرية حرستا بالكامل.

1ـ عن الإمام الباقرعليه السلام قال: (وخسف قرية من قرى الشام تسمى الجابية، ونزول الترك الجزيرة، ونزول الروم الرملة. واختلاف كثير عند ذلك في كل أرض، حتى تخرب الشام (وفي رواية وأول أرض تخرب الشام) ويكون سبب خرابها اجتماع ثلاث رايات فيها: راية الأصهب، وراية الأبقع، وراية السفياني) الإرشاد للمفيد ص 35.

ارتعد جسدي التفتُّ إلى منتظر الذي كان يحدق في الشاشة بعينين متسعتين. قال بصوت يرتجف من فرط اليقين: الله أكبر! لقد وقعت الآية يا هادي، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام... رجفة تكون بالشام يهلك فيها مئة ألف، يجعلها الله رحمة للمؤمنين وعذابا للكافرين وخسف قرية من قرى دمشق يقال لها حرستا، وسقوط حائط مسجدها الغربي[1].

نحن الآن أمام توقيت إلهي دقيق، الأحداث ستتوالى كنظام الخرز

لم تمضِ أيام على فاجعة الزلزال، حتى استغلت القوى الخارجية حالة الفوضى والضعف. بدأت رايات أجنبية تتدفق إلى الساحة الشامية توالت الأنباء عن دخول قوات عسكرية تحمل رايات صفراء من جهة الغرب،

1ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (إذا اختلف الرمحان بالشام، لم تنجل إلا عن آية من آيات الله قيل: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: رجفة تكون بالشام، يهلك فيها أكثر من مائة ألف، يجعلها الله رحمة للمؤمنين وعذاباً على الكافرين فإذا كان ذلك، فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهب المحذوفة، والرايات الصفر، تقبل من المغرب حتى تحل بالشام وذلك عند الجزع الأكبر والموت الأحمر فإذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من دمشق يقال لها حرستا فإذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس، حتى يستوي على منبر دمشق فإذا كان ذلك فانتظروا خروج المهدي) غيبة النعماني: 305.

قال منتظر وهو يؤشر على خريطة الشام التي علقناها على الجدار: إنهم أصحاب الرايات الصفر والبراذين الشهب المحذوفة، القوات المغربية أو الغربية التي تتدخل بحجة حفظ الأمن، لكن هدفها الحقيقي هو ضرب الممهدين، ستصطدم هذه القوات حتماً بأصحاب الرايات السود الممهدين للإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف، وقد ورد أنهم يلتقون عند القنطرة في فلسطين أو أطرافها.

تحولت بلاد الشام إلى ساحة لتصفية الحسابات الدولية. وفي ظل هذا الفراغ المريع، انشق الداخل الشامي على نفسه بشكل دموي، ظهر على الساحة زعيمان يتناحران على السلطة، وسط دمار هائل للمدن سألت منتظر ونحن نتابع مشاهد حرب الشوارع: من هؤلاء؟ أجاب وهو يطوي صفحات كتابه: إنها الرايات المتصارعة، هذا الذي يميل إلى الغرب هو الأبقع، ومنافسه الذي يميل إلى الترك والروس هو الأصهب الروايات تؤكد أن الشام ستخرب بسبب صراعهما المستميت على السلطة، ولن ينجح أحدهما في حسم المعركة ولكن هما لا يعلمان أنهما يمهدان المسرح لخروج الوحش.

شعرت بانقباض في صدري، الوحش... لطالما قرأت عنه كنت أعرف من يقصد منتظر.

وفي شهر رجب، بينما كان الناس منشغلين بصراع الأبقع والأصهب، صدر البيان الذي غير مجرى التاريخ، من منطقة حوران، وتحديداً من الوادي اليابس المحاذي لدرعا والحدود الأردنية، أعلن متمرد جديد ثورته. كانت الشاشات تنقل صورته لأول مرة: رجل مربوع القامة، وحش الوجه، ضخم الهامة، في وجهه آثار جدري واضحة، وإذا نظرت إليه خلت أنه أعور من شدة بشاعة ملامحه [1]، كان يقف وخلفه راية حمراء قانئة ترفرف كأنها نذير شؤم، وفي عنقه يتدلى صليب ذهبي يكشف عن ولائه للروم وثقافته الغربية.

---

1 ـ عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: يخرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس. وهو رجل ربعة (أي مربوع) وحش الوجه، ضخم الهامة، بوجهه أثر الجدري، إذا رأيته حسبته أعور. اسمه عثمان وأبوه عيينة (عنبسة)، وهو من ولد أبي سفيان، حتى يأتي أرض قرار ومعين فيستوي على منبرها. البحار: 52 / 205.

صرخ منتظر وقد شحب وجهه: إنه هو! عثمان بن عنبسة، ابن آكلة الأكباد! السفياني الملعون قد خرج!

كانت حركة السفياني سريعة وعنيفة بشكل لا يصدق، كأنها إعصار من نار، لم يكن مجرد متمرد، بل كان أداة بيد الروم واليهود لتوحيد المنطقة بالحديد والنار لتكون خط دفاعهم الأول، في غضون أسابيع، زحف بجيشه المتعطش للدماء نحو دمشق، اصطدم بجيش الأبقع فمزقه شر ممزق وقتله، ثم التفت إلى الأصهب فحصده وجيشه حصد الزرع.

لم نرَ في حياتنا وحشية كتلك التي نقلتها لنا الأخبار ومقاطع الفيديو المسربة، كان السفياني يقتل العلماء وأهل الفضل، ومن يعصيه كان ينشره بالمناشير ويغلي الأطفال في القدور الكبيرة [1]، كان حقده الأعمى منصباً بشكل خاص على محبي آل محمد عليهم السلام.

---

1 ـ في مخطوطة ابن حماد ص 76 عن أبي قبيل قال: (السفياني شر ملك، يقتل العلماء وأهل الفضل ويفنيهم يستعين بهم، فمن أبى عليه قتله)، وفي ص 80 قال: (يقتل السفياني من عصاه، وينشرهم بالمناشير، ويطبخهم بالقدور، ستة أشهر)! وفي ص 84 عن ابن عباس قال: (يخرج السفياني فيقاتل، حتى يبقر بطون النساء ويغلي الأطفال في المراجل).

كنت أقبض على يدي بقوة حتى كادت أظافري تدمي كفي، كنت أرى دماء الأبرياء تسيل، وأتمنى لو أمتلك أجنحة لأطير إلى هناك وأدافع عن المستضعفين؛ نظر إليّ منتظر وربت على كتفي بقوة، كأنه يقرأ غليان روحي.

قال: بصوت هادئ لكنه حازم: اصبر يا هادي؛ الإمام الصادقعليه السلام أوصانا بأن نغيب وجوهنا عنه في هذه المرحلة؛ السفياني حتم من الله[1]، وخروجه من أوله لآخره خمسة عشر شهراً؛ سيقاتل لستة أشهر كاملة حتى يسيطر تماماً على الكور الخمس: دمشق، الأردن، حمص، حلب، وقنسرين؛ وعندما يملكها، سيحكم تسعة أشهر لا يزيد عليها يوماً.

اكتملت سيطرة السفياني الملعون على بلاد الشام، وأحكم قبضته عليها محولاً إياها إلى ثكنة عسكرية كبرى، ورغم ادعائه التدين في بداياته

1ـ قالعليه السلام: (إن أمر السفياني من الأمر المحتوم، وخروجه في رجب) كمال الدين: ج٢ ص٦٥٠.

وتظاهره بالصلاة لخداع الناس، إلا أن وجهه الحقيقي قد تجلى بأبشع صورة.

وفي ليلة من ليالي النجف الصافية، وبينما كنا نجلس على سطح المنزل نراقب النجوم، ونتحدث عن فقد صديقنا العزيز وليد الذي تعرض لحادث جعله في حالة غيبوبة والتي لا نعلم متى يستفيق منها. ثم أردف منتظر قائلا: لقد أتم السفياني مهمته الأولى بنجاح؛ أسياده في الغرب وفلسطين المحتلة مرتاحون الآن، فقد أمنوا خاصرتهم؛ لكن هدفه التالي ليس البقاء في الشام، بل نحو الأرض التي نجلس عليها، وقال بقلب يعتصره الألم واليقين معاً: لم يعد له همة إلا الإقبال نحو العراق يريد إيقاف الممهدين أصحاب الرايات السود، ويريد تصفية شيعة علي عليه السلام في الكوفة والنجف؛ استعد يا هادي...

العاصفة القادمة ستهب على أبوابنا.

وقفت على قدمي، واستنشقت هواء النجف العليل؛ لم أعد أخشى العاصفة كنت أعلم أن دماءً طاهرة ستسيل، وأن محنة عظيمة تنتظرنا،

لكنني كنت أعلم أيضاً أن هذه العاصفة هي آخر ما سيهب من جحيم الظلم، قبل أن تشرق شمس العدل الإلهي.

الفصل الحادي عشر

دماء على ضفاف الفرات

كان الانتظار أشدّ قسوة من طعنات السيوف. في أزقة النجف، حيث تتنفس الجدران عبق التاريخ وتنبض القلوب بحب آل البيت، خيّم صمت ثقيل يشبه هدوء المقابر قبل أن توقظها صيحة النشور، كنت أقف مع منتظر على سطح منزلنا، نراقب الأفق الغربي الملبد بغيوم داكنة لم تكن تحمل مطراً، بل كانت تنذر بعاصفة من نار ودم.

تحركت قوات الترك والروس من الشمال، واندفعت قوات الروم من الغرب، وزحف السفياني بجيشه المنتشي بانتصاراته الدموية في الشام نحو تلك النقطة الملعونة: قرقيسيا [1].

جلسنا في الغرفة، نشاهد التلفاز الذي كان يبث أخباراً تقشعر لها الأبدان. قال منتظر بصوت خافت: قرقيسيا مأدبة طير السماء. صدق أمير المؤمنين عليه السلام، إنها المعركة التي لا المنتصر فيها منتصر، ولا المنهزم فيها ينجو

1 ـ عن حذيفة بن منصور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إن لله مائدة وفي رواية مأدبة، بقرقيسياء يطلع مطلع من السماء فينادي يا طير السماء ويا سباع الأرض هلموا إلى الشبع من لحوم الجبارين. الكافي، للكليني، ج8-ص278.

السفياني سيقاتل الترك والروم هناك، مئة ألف قتيل ستتخم منهم سباع الأرض وطيور السماء.

كنت أتخيل المشهد: جثث تتكدس كالتلال، دماء تختلط بماء الفرات حتى يحمر لونه، وحوش بشرية يمزق بعضها بعضاً من أجل بريق الذهب والسلطة. ورغم فظاعة المشهد، شعرت بشيء من الطمأنينة الإلهية فالظالمون يضربون بالظالمين، ليخرج الله عباده المستضعفين من بينهم سالمين. لكن هذه الطمأنينة لم تدم طويلاً.

خرج السفياني من مستنقع قرقيسيا منتصراً ظاهرياً، لكنه كان كوحش جريح ازداد شراسة وعطشاً للدماء، وبدلاً من أن يعود أدراجه إلى الشام، وجّه بوصلة حقده نحو العراق.

توالت الأنباء كالصواعق دخل جيش السفياني، المكون من مئة وثلاثين ألف مقاتل، الأراضي العراقية انقسم الجيش إلى قسمين، قسم توجه جنوباً نحو المدينة المنورة بحثاً عن الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف، وهو جيش الخسف الذي

ننتظر زواله بفارغ الصبر، والقسم الأكبر والأكثر توحشاً زحف نحو العاصمة الزوراء (بغداد).

لم تكن حرباً تقليدية، بل كانت إبادة ممنهجة؛ نقلت لنا المقاطع المسربة مشاهد لا يتحملها قلب بشر جيش السفياني لم يفرق بين طفل وشيخ، ولا بين رجل وامرأة، كانوا يبقرون بطون الحوامل في الشوارع، ويقتلون كل من يحمل اسم علي أو فاطمة أو حسن أو حسين على الهوية؛ كان الحقد الأموي القديم قد بعث من مرقده، يمشي على قدمين ويحمل سلاحاً حديثاً.

كنت أضغط على زناد بندقيتي حتى ابيضت مفاصلي، الدموع تحرق عيني وأنا أرى عاصمة بلادي تحترق، وأبناء ديني يُذبحون كالشياه، التفتُ إلى منتظر وصرخت بألم لم أستطع كتمانه: إلى متى يا منتظر؟ إلى متى ننتظر؟ دماء الأبرياء تسيل أنهاراً، ونحن هنا قابعون في النجف ننتظر وصولهم!

أمسك منتظر بكتفي بقوة، ونظر في عيني نظرة اخترقت روحي: الغضب الذي في صدرك هو غضب مقدس يا منتظر، لكننا لا نتحرك بعاطفة

عمياء؛ بغداد تحترق نعم، وهذه ضريبة التمحيص؛ السفياني سيدخل الكوفة والنجف، هذا وعد صادق، ودورنا ليس إيقاف قدر محتوم، بل الوقوف كجدار من نار لحماية أعراضنا ومقدساتنا حتى تأتي رايات الفرج من المشرق (إيران) ومن اليمن، استعد، فقد لاحت طلائعهم.

وفعلاً، لم يطل الانتظار، تقدم جيش السفياني نحو الفرات الأوسط. وصلوا إلى مشارف النجف، وتوجهوا نحو الكوفة هنا، تغيرت قواعد اللعبة، لم تعد النجف والكوفة مجرد مدن تنتظر مصيرها، بل تحولتا إلى خلية نحل عسكرية، انضممت أنا ومنتظر إلى مجاميع الشباب المتطوعين، تشكلت فصائل المقاومة الشعبية في أزقة الكوفة، وتخندقنا خلف المتاريس التي صنعناها.

في صبيحة يوم أغبر، بدأ الهجوم؛ كانت القذائف تمطر علينا كزخات المطر رأيت جيش السفياني يتقدم، يحملون راياتهم الحمراء الملعونة، وجوههم مكفهرة، وعيونهم تقدح شرراً؛ لأول مرة في حياتي، أجد نفسي وجهاً لوجه أمام الموت المحقق لكن العجيب، أن الخوف الذي كان يسكنني

طوال سنوات عجزي، قد تبخر تماماً، شعرت بصلابة الأرض تحت قدميّ، وكأن تراب الكوفة يمدني بقوة لم أشعر بمثلها من قبل.

اشتعلت حرب شوارع ضارية؛ كنت أتنقل بين الأزقة بخفة لم أعهدها، أطلق النار، وأسحب الجرحى، كان منتظر يقاتل بضراوة رجل يرى الجنة خلف فوهة بندقيته؛ سقط منا شهداء كثر، تناثرت أشلاؤهم الطاهرة على تراب الكوفة، واختلطت دماؤهم بدموع الثكالى؛ جيش السفياني كان متفوقاً بالعدة والعتاد، وبدأ يضيق علينا الخناق شيئاً فشيئاً.

وصلت المعارك إلى تخوم مرقد أمير المؤمنين عليه السلام ومسجد الكوفة؛ كانوا يبحثون عنّا، عن شيعة علي، بيتاً بيتاً، كان النداء المرعب يتردد في مكبرات الصوت الخاصة بهم: ألا من جاء برأس شيعي فله ألف درهم؛ رأيت البعض يُسحبون من منازلهم ويُعدمون بدم بارد في الساحات العامة.

في تلك اللحظة القاسية، وبينما كنت أحتمي خلف جدار نصف مهدم في الكوفة، ومنتظر يضمد جرحاً سطحياً في ذراعه، نظرت إلى السماء التي حجبها دخان الحرائق، شعرت بضيق في تنفسي، ليس من الدخان، بل من

وطأة الظلم، هل سنباد جميعاً قبل أن نكحل أعيننا برؤيته؟ هل ستُدنس مقدساتنا مرة أخرى؟

قلت لمنتظر وأنا ألقم بندقيتي بآخر مشط من الرصاص: لقد أطبقوا علينا يا أخي، السفياني يعيث في الأرض فساداً، والقتل لم يعد يستثني أحداً

ابتسم منتظر ابتسامة شاحبة، لكنها مليئة بيقين عجيب، ورفع رأسه نحو السماء مجيباً: عندما تبلغ القلوب الحناجر، وتظن النفوس بالله الظنونا، يأتِ الفرج، تذكر يا هادي، السفياني ليس قدرنا النهائي، هو مجرد ظلام يسبق الفجر، اسمع جيداً...

سكت منتظر فجأة، وأمال رأسه كمن يحاول التقاط صوت خفي وسط أزيز الرصاص، تعجبت من صمته، فركزت سمعي أنا أيضاً من بعيد، من جهة الشرق، وتحديداً من خلف الحدود المشتعلة، بدأ يتردد صدى هدير مختلف، لم يكن صوت دبابات السفياني، بل كان أشبه بهدير سيل عارم يزحف بقوة لا تقهر.

التفت إليّه، وقد عادت الدماء تتدفق في وجهه، وصرخ بصوت غطى على دوي الانفجارات: إنها رايات الحق يا هادي! اليماني والخراساني قد كسرا القيد! المدد قادم!

شددت قبضتي على بندقيتي، ووقفت على قدمي متجاهلاً ألم التعب شعرت وكأن روحي قد ولدت من جديد. المعركة الحقيقية لم تنتهِ، بل لقد بدأت للتو.

الفصل الثاني عشر

رايات المشرق تكسر القيد

لم يكن الهدير الذي سمعناه مجرد صوت آليات عسكرية تقترب، بل كان أشبه بنبض قلب الأرض حين تنتفض لكرامتها المهدورة، في تلك اللحظات، حيث اختلطت رائحة البارود بعبق دماء الشهداء في أزقة النجف، وحيث ظن جيش السفياني أنهم أحكموا الخناق على أعناقنا، تبدلت المعادلة في طرفة عين.

فقد انطلقت الرايات السود الخراسانية، يقودها الخراساني بوجهه النوراني، ومعه قائده العسكري الشاب الموعود شعيب بن صالح [1]، ذلك الفتى الأسمر النحيل، الخفيف اللحية، الذي لا يمر بجبل إلا هده، ولا يلقى راية إلا كسرها.

---

1 ـ عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال إذا خرجت خيل السفياني إلى الكوفة، بعث في طلب أهل خراسان، ويخرج أهل خراسان في طلب المهدي، فيلتقي هو والهاشمي برايات سود، على مقدمته شعيب بن صالح، فيلتقي هو وأصحاب السفياني بباب إصطخر، فتكون بينهم ملحمة عظيمة، فتظهر الرايات السود، وتهرب خيل السفياني، فعند ذلك يتمنى الناس المهدي ويطلبونه (معجم أحاديث الامام المهدي ج3: ص 77 الحديث 621).

كانت قوات السفياني قد بدأت تتخبط، نداءاتهم عبر الأجهزة اللاسلكية تحولت من أوامر إعدام متغطرسة إلى صرخات استغاثة ذليلة. تركتُ متراسي، ووقفت بكامل قامتي، تذكرت لسنوات خلت كيف كنت مقعداً على كرسي متحرك، وكيف كنت أراقب الناس يركضون وأنا عاجز عن تحريك ساكن؛ أما اليوم، فكانت الدماء تفور في عروقي، وعضلات ساقيّ تشتد كالفولاذ المرن؛ لم أشعر قط باني حر كما شعرت في تلك اللحظة.

صرختُ بأعلى صوتي: الله أكبر! وانطلقت أقفز فوق الركام، متجاوزاً خطوط الدفاع الأولى، لحق بي منتظر وكتائب المقاومة في الكوفة، لقد تحولنا من حالة الدفاع المستميت إلى الهجوم الكاسح.

من جهة الشرق، اقتحمت طلائع الرايات السود المشهد. كانوا يتقدمون بقلوب كزبر الحديد، لا يهابون الموت بل يبحثون عنه، اشتبكوا مع ميمنة جيش السفياني باشتباك التحامي مباشر، رأيت جنود المشرق يقاتلون بعقيدة لا تكسرها الدبابات ولا ترهبها الطائرات.

لكن المفاجأة الكبرى لم تكن من الشرق فحسب، فبينما كانت معركة طاحنة تدور رحاها لكسر حصار الكوفة، انشق الأفق الجنوبي عن تكبيرات زلزلت الأرض. جاءني منتظر يركض وسط وابل الرصاص، وجهه متهلل ومغطى بغبار النصر المحتوم، وصاح بي: اكتملت القوة يا هادي! انظر إلى الجنوب! اليماني! لقد وصلت قوات اليماني الموعود!

نظرت نحو طريق الجنوب، فرأيت رايات زاحفة بنظام عجيب وروح معنوية تعانق السماء. تذكرت ما قرأته مع منتظر مراراً: أهدى الرايات راية اليماني [1]، لأنه يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ كان اليمانيون قد تحركوا في توقيت إلهي دقيق، وتجاوزوا كل الصعاب والحدود ليصلوا إلى قلب العراق لنجدتنا.

وجدت نفسي أقاتل في صفوف متداخلة؛ عن يميني شاب خراساني يرتجز بلغة لا أفهم كلماتها لكنني أفهم روحها الحسينية، وعن يساري مقاتل

---

1 ـ عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام (... خروج الثلاثة؛ الخراساني والسفياني واليماني في سنة واحدة، في شهر واحد، في يوم واحد، فليس فيها راية بأهدى من راية اليماني، تهدي إلى الحق .(معجم أحاديث الامام المهدي ج3: ص 472 الحديث 1037).

يماني أسمر يرمي فلا يخطئ، ومن خلفي منتظر يوفر لنا التغطية النارية الدقيقة، كنا ثلاثة شعوب، بثلاث هويات، صهرتنا عقيدة واحدة، وجمعتنا راية تمهد لظهور إمام واحد.

اندفعنا نحو قلب تمركز جيش السفياني الملعون، كنت أركض، أطلق النار، أراوغ، وألتحم بالأيدي حين ينفد الرصاص، قفزت فوق مدرعة محترقة لسحب جندي خراساني جريح، حملته على كتفي وركضت به إلى نقطة آمنة. نظر إليّ الجريح بامتنان وقال كلمة فارسية لم أفهمها، فابتسمت ورددت: يا مهدي.

أصاب الذعر جيش السفياني، بعد أن كانوا يذبحون الأبرياء في بغداد والحلة، وجدوا أنفسهم الآن بين مطرقة الخراساني وسندان اليماني، وفي وسط نار المقاومة العراقية، لم يصمدوا طويلاً. بدأت صفوفهم تنهار، وتخلوا عن آلياتهم، وولوا الأدبار هاربين نحو صحراء الأنبار ومنها إلى الشام، مخلفين وراءهم جثث قتلاهم وعار هزيمتهم التاريخية.

في تلك الليلة، لم تنم النجف، كانت الشوارع تضج بالبكاء والتحميد والعناق، تلاقت الرايات الثلاث: العراقيون، والإيرانيون، واليمانيون، في ساحات المدينة الطاهرة.

جلستُ على درجات مسجد الكوفة المعظم، بندقيتي على ركبتي، وأنا ألهث من التعب اللذيذ، جلست ونظرت إلى قدميّ، مسحت عليهما بيدي وأنا أهمس: الحمد لله الذي لم يقبض روحي حتى جعلني جندياً يمشي على قدميه في ساحة الحق.

جلس منتظر بجانبي، وأسند رأسه إلى عمود المسجد. كان منهكاً لكن وجهه كان يشع نوراً، رفع رأسه نحو السماء الصافية التي بدأت تتهيأ لاستقبال هلال شهر شعبان، وقال بهدوء عميق: لقد طهّرنا العراق يا هادي، انكسرت شوكة السفياني هنا، وقامت دولة المهدين الموحدة. لكن هذه ليست النهاية... إنها مجرد البداية الحقيقية.

التفتُّ إليه منتظراً بقية حديثه المعتاد المبني على استقراء الروايات. أكمل منتظر وعيناه تدمعان: نحن الآن نقترب من شهر رمضان، الأرض قد

تهيأت، والرايات قد تمايزت، والقلوب قد مُحصت، لم يبق بيننا وبين الوعد الإلهي الأعظم سوى نداء واحد... صيحة واحدة تشق عنان السماء لتبشر العالم بأن شمس العدل قد أشرقت.

نظرت إلى السماء، وعانقت النجوم بناظري، لقد كسرنا القيد، وطردنا وحش الشام من أرضنا، وها نحن ننتظر...

ننتظر النداء الذي سيغير وجه الأرض إلى الأبد.

الفصل الثالث عشر

نداء السماء وخسف البيداء

بعد جلاء غبار معركة النجف، خيّم على العراق هدوء مشوب بترقب مهيب، لم يكن هدوء المنتصرين الذين يركنون إلى الراحة، بل هدوء المتأهبين لنداء أعظم. حلت أيام شهر رمضان المبارك، ولم يكن رمضان كغيره، فقد تجمعت الرايات المهدة في النجف، وتعلقت العيون والقلوب بالسماء كنا نعلم، أنا ومنتظر، وكل من قرأ وتدبر، أن هذا الشهر هو محطة الفصل بين زمنين: زمن الغيبة، وزمن الظهور.

كنت أقضي ليالي القدر في مسجد الكوفة، ساجداً على ترابها الذي ارتوى بدماء الشهداء قبل أسابيع، كنت أطيل النظر في يديّ وساقيّ، وأشعر بامتنان يبكيني، لقد وهبني الله هذه العافية وهذا الجسد القوي لا لأعيش لنفسي، بل لأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الطلعة الرشيدة كنت أحدث نفسي في ليالي المناجاة: يا رب، اجعلني درعاً له، لا تمتني إلا بين يديه وفي ساحته. لم أكن أعلم حينها أنَّ السماء كانت تستمع لهمسي بدقة.

جاءت ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان، كانت ليلة جمعة، هادئة بشكل غريب، لا تنبح فيها الكلاب ولا تهب فيها الرياح، تماماً كما

وصفتها الروايات [1]، كنت أجلس مع منتظر في صحن المسجد، نقرأ القرآن ونتأمل النجوم، وفجأة... في الثلث الأخير من الليل، توقف الزمن.

لم يكن صوتاً، بل كان زلزالاً روحياً وكهرباء سرت في كل ذرة من ذرات الكون؛ صيحة مدوية، صيحة لم تسمعها الآذان فحسب، بل اخترقت الصدور واستقرت في صميم القلوب؛ جبرئيل عليه السلام ينادي من السماء، بصوت سمعه النائم فأيقظه، والقاعد فأوقفه، والواقف فأسقطه على ركبتيه؛ سمعه كل قوم بلغتهم الأم، واضحاً جلياً كفلق الصبح: ألا إن الحق في علي وشيعته [2]... ألا إنّ المهدي من آل محمد قد ظهر، فاتبعوه.

---

1 ـ عن الحارث بن المغيرة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الصيحة التي في شهر رمضان، تكون ليلة الجمعة لثلاث وعشرين مضين من شهر رمضان» (كمال الدين وتمام النعمة ج1 ص680).

2 ـ عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ينادي منادٍ من السماء أوَّل النهار: ألا إنَّ الحقّ في عليٍّ وشيعته، ثمَّ ينادي إبليس (لعنه الله) في آخر النهار: ألا إنَّ الحقّ في السفيانيّ وشيعته، فيرتاب عند ذلك المبطلون» (كمال الدين وتمام النعمة ج1 ص680).

وفي بعض الروايات: أن الحق مع عثمان وشيعته.

سقطتُ على وجهي ساجداً، وأنا أجهش ببكاء لم أختبر مثله في حياتي. بكاء يغسل روح العاجز الذي انتظر الخلاص دهراً؛ التفتُّ إلى منتظر، فوجدته يعانق الأرض وعيناه تفيضان بالدموع، يتمتم متلعثماً من هول الجلال: جاء الحق... وزهق الباطل... جاء الحق.

في صبيحة ذلك اليوم، انقلب العالم رأساً على عقب، تعطلت وكالات الأنباء الغربية والشرقية، وحاولت الحكومات الظالمة التعتيم على الحدث العظيم وتفسيره بظواهر فلكية أو تجارب صوتية، لكن هيهات! لقد دخل النداء كل بيت ولكن، وكما أخبرتنا الروايات بلسان أئمتنا، فإن إبليس لا يترك الناس دون فتنة، ففي آخر النهار، عند اقتراب غروب الشمس، انطلق نداء شيطاني أرضي من جهة الغرب، يحمل التشكيك والضلال: ألا إن الحق في السفياني وشيعته.

كانت فتنة عظيمة، غربلة نهائية قبل الظهور؛ رأيت كيف ارتاب الكثير من المسلمين الذين تأثروا بالصيحة الأولى للأسف الصيحة الثانية أرجعت الكثير منهم، وبدأوا يتساءلون أي النداءين أصدق؟

وضع منتظر يده على كتفي ونحن نراقب حيرة بعض الناس، قال بصوت ثابت: هنا يتمايز الخبيث من الطيب يا هادي، النداء الأول سماوي ملائكي يورث السكينة واليقين، والنداء الثاني شيطاني يورث الشك والاضطراب من كان في قلبه ذرة من ولاء لآل محمدعليهم السلام عرف الحق، ومن كان في قلبه مرض اتبع نداء إبليس ليلتحق بجيش السفياني.

وبالحديث عن السفياني... ذلك الطاغية المندحر في العراق، جن جنونه بعد النداء السماوي، أدرك أن نهايته قد أُزفت، وأنَّ غريمه الأعظم قد أوشك على إعلان ثورته من مكة، فأرسل جيشاً جراراً من الشام، هو جيش الخسف، قاصداً المدينة المنورة، ظنّاً منه أنَّ الإمام المهديعجل الله تعالى فرجه الشريف متواجد هناك.

كانت الأخبار التي تصلنا من الحجاز تدمي القلوب، فقد اقتحم جيش السفياني مدينة رسول اللهصلى الله عليه وآله، وعاثوا فيها فساداً لثلاثة أيام. قتلوا الأبرياء، واستباحوا الحرمات، وبحثوا عن كل هاشمي لقتله.

كنت أقبض على سلاحي بغضب، وأسأل منتظر: متى نتحرك؟ المدينة تُستباح [1] ونحن ننتظر؟ أجابني منتظر، وعيناه تراقب شاشة الأخبار التي تنقل تحرك جيش السفياني من المدينة باتجاه مكة المكرمة قاصدين هدم الكعبة واغتيال الإمام: راقب الشاشة يا هادي...

السماء لن تتركهم هذه المرة لأيدي البشر؛ انظر إلى قدرة القهار.

وبالفعل، بعد خروج الجيش من المدينة المنورة متوجهين نحو مكة، وصلوا إلى منطقة صحراوية تسمى البيداء وهناك، حدثت الآية الكبرى التي أخرست ألسنة المشككين في مشارق الأرض ومغاربها.

نقلت الأقمار الصناعية ووسائل الإعلام مشهداً لا يصدقه عقل مادي. الأرض، بكل صلابتها، انشقت فجأة كفم وحش جائع في ثوانٍ

---

1 ـ روى حذيفة بن اليمان حديثا عن النبيﷺ ذكر فيه فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب وقال: «فبينما هم كذلك يخرج عليهم السفياني . . . فيبعث جيشين جيشا إلى المشرق، وآخر إلى المدينة . . .ويحل الجيش الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام بلياليها، ثم يخرجون متوجّهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث اللهّ جبرئيل فيقول يا جبرئيل إذهب فأبدهم. فيضربها برجله ضربة يخسف بهم عندها، ولا يفلت منهم إلا رجلان من جهينة».

بحار الأنوار، ج 52، ص 186.

معدودات، ابتلعت الصحراء جيش السفياني بأكمله، بدباباته، ومدرعاته، وعشرات الآلاف من جنوده المرتزقة، غاصوا في أعماق الأرض ولم يبقَ لهم أثر، وكأنهم لم يكونوا، لم ينجُ منهم سوى رجلين اثنين، صُرفت وجوههما إلى أقفائهما، أحدهما يُدعى بشير انطلق ليخبر الإمام في مكة بهلاك الظالمين، والآخر نذير انطلق عائداً إلى الشام ليخبر السفياني الملعون بمصير جيشه.

وقفت مذهولاً أمام الشاشة. الآيات تتحقق حرفياً النداء السماوي هز أركان السماء، وخسف البيداء زلزل أركان الأرض التفتُّ إلى منتظر، فلم يعد هناك حاجة للكلام، جمعنا أسلحتنا الخفيفة، وحملنا زاداً قليلاً، نظرت إلى بندقيتي، ثم إلى يديّ القويتين، وهمست في سري مجدداً: اللهم اجعلني فداءً له.

قلت لمنتظر وأنا أشد حزامي: لقد حصحص الحق يا أخي، لم يعد لنا بقاء في العراق العاشر من محرم يقترب، وشمس مكة تنتظرنا.

أومأ منتظر برأسه، وأغلق كتابه القديم، ثم وضعه في حقيبته، وقال بعزم:

إلى الكعبة يا هادي... لنجدد البيعة بين الركن والمقام.

الفصل الرابع عشر

شمس مكة وصرخة الثأر

الطريق من النجف إلى مكة لم يكن مجرد مسافة تُقطع، بل كان معراجاً للروح، بعد معجزة خسف البيداء التي ابتلعت جيش السفياني، تهاوت كل شكوك الأرض، وباتت القلوب معلقة ببيت الله الحرام، لم ننتظر طويلاً أنا ومنتظر، حزمنا زاداً يسيراً، وتوجهنا مع قوافل المهدين والمنتظرين نحو الحجاز.

كنت أمشي على قدمي في صحراء الجزيرة العربية، أطوي المسافات طياً، ولا أشعر بتعب، كل خطوة كانت تمسح من ذاكرتي سنوات العجز والجلوس على ذلك الكرسي. كنت أنظر إلى القوافل الزاحفة وجوه لوحتها الشمس، عيون غائرة من السهر، لكنها تلمع بيقين أشد مضاءً من السيوف، كان منتظر يسير بجانبي، يقرأ في كتابه تارة، وينظر إلى بوصلة النجوم تارة أخرى، صامتاً في أغلب الأحيان، وكأن الكلمات لم تعد تتسع لحجم الحدث.

وصلنا مكة في أواخر شهر ذي الحجة، كانت المدينة المقدسة تعيش حالة من الغليان المكتوم، الحج قد انقضى، لكن الحشود لم تغادر. الجميع كان

ينتظر شيئاً ما، حتى السلطات الحاكمة المتهالكة كانت في حالة استنفار قصوى. قوات الأمن التابعة لحكومة الحجاز، والمدعومة من قوى الاستكبار، كانت تجوب شوارع مكة وتطوّق المسجد الحرام، كانوا يبحثون عن رجل واحد، يعلمون أن ظهوره يعني زوال ملكهم إلى الأبد. في اليوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وقعت الفاجعة التي زلزلت قلوبنا، والتي طالما حذرنا منها منتظر.

كنا داخل المسجد الحرام، بالقرب من الكعبة، الأجواء كانت مشحونة. فجأة، وقف شاب بهي الطلعة، يحمل في ملامحه نور النبوة وهيبة الإمامة. وقف بين الركن والمقام، ورفع صوته بنداء يحمل رسالة من الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف إلى أهل مكة، لم يكد الشاب يكمل كلماته، حتى انقضت عليه قوات السلطة بوحشية لا نظير لها. ذبحوه من الوريد إلى الوريد في أقدس

بقعة على وجه الأرض ذبحوه بين الركن والمقام، وسالت دماؤه الطاهرة لتخضب رخام الحرم [1].

وضعت يدي على مقبض حربتي، وكدت أندفع نحو القتلة ودمائي تغلي في عروقي كمرجل من نار، كيف يُذبح شاب من آل محمد في بيت الله الآمن وأنا أقف متفرجاً؟ لكن قبضة منتظر الفولاذية أمسكت بكتفي بقوة منعتني من التحرك.

همس منتظر في أذني وصوته يرتجف من الغضب المكتوم والألم: توقف يا منتظر! إياك أن تُفسد التدبير الإلهي بعاطفتك! هذا الشاب هو النفس الزكية المذكور في الروايات، دمه هو آخر وأعظم علامات الظهور الحتمية، ألم تقرأ قول الإمام الصادق عليه السلام؟ ليس بين قتل النفس الزكية وبين خروج القائم إلا خمس عشرة ليلة [2].

---

1 ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: «... وقتلُ غُلامٍ من آلِ محمّدٍ بينَ الركنِ والمقَامِ اسمهُ محمد بن الحسن النفس الزكيَّة» (كمال الدين وتمام النعمة، ج1، ص330).

2 ـ كمال الدين: ج٢ ص٦٤٩ ب٥٧ ح٢.

تراجع، واكتم غيظك، فإن موعد ثأرنا قد أزف، انسحبنا إلى أزقة مكة القديمة، نعد الأيام والليالي، كانت تلك الخمسة عشر يوماً أطول وأثقل من كل سنوات عمري السابقة دخل شهر محرم الحرام، شهر الدم والشهادة، ومع كل يوم يمر، كانت الإجراءات الأمنية تشتد، وبدأ أصحاب الرايات السود يتدفقون إلى مكة سراً، يتغلغلون بين الناس استعداداً للحظة الصفر.

وفي صبيحة اليوم العاشر من محرم يوم عاشوراء اليوم الذي بكت فيه ملائكة السماء دماً على الحسين عليه السلام... أشرقت شمس مكة على مشهد لن يمحى من ذاكرة الكون [1].

كنّا أنا ومنتظر نقف في صحن المطاف، متخفين بين الآلاف من الطائفين والمصلين فجأة، عمّ سكون عجيب، توقفت حركة الطيور في السماء،

---

1 ـ قال أبو جعفر محمد بن علي عليهما السلام: «كأني بالقائم يوم عاشوراء يوم السبت قائما بين الركن والمقام، بين يديه جبرئيل ينادي: البيعة لله، فيملؤها عدلا كما ملئت ظلما وجورا».
معجم أحاديث الإمام المهدي ج3: ص 293 ح 830.

وخفتت أصوات الحشود وكأن على رؤوسهم الطير، انشق الزحام تدريجياً، ليفسح المجال لرجل يتهادى في مشيته كأنه الشمس إذا تجلت.

كان يرتدي بردة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلى رأسه عمامته السحاب، وفي يده سيف أمير المؤمنين عليه السلام ذو الفقار، وجهه كالقمر ليلة البدر، يحمل هيبة الأنبياء ووقار الأوصياء، تقدم بخطوات واثقة حتى أسند ظهره الشريف إلى جدار الكعبة، بين الركن والمقام.

توقفت أنفاسي تجمدت عيناي على محياه النوراني، لم أحس بدموعي وهي تحرق وجنتي وتغسل لحيتي. سقط منتظر على ركبتيه ينتحب كطفل عاد إلى حضن أبيه بعد ضياع طويل. هذا هو...

هذا هو الأمل الذي عشنا لأجله، هذا هو المنقذ الذي كُتبت لأجله المجلدات وسُفكت على طريقه الدماء.

رفع الإمام رأسه الشريف، وتلا بصوت ملأ أرجاء المسجد الحرام، صوتاً يخترق شغاف القلوب قبل الآذان، الآية الكريمة: {بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [1]. ثم قال: أنا بقية الله في أرضه، وخليفته وحجته عليكم. لا يسلم عليّ مُسَلِّم إلا قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه [2].

ثم بدأ خطبته التاريخية الأولى، يذكر فيها مظلومية آل محمد، ويستنصر العالم على طواغيت الأرض فقال بصوت يخترق القلوب: **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَسْتَنْصِرُ اللهَ وَمَنْ أَجَابَنَا مِنَ النَّاس، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ وَنَحْنُ أَوْلَى النَّاس بِاللهِ وَبِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله.فَمَنْ حَاجَّنِي فِي آدَمَ فَأَنَا أَوْلَى النَّاس بِآدَمَ، وَمَنْ حَاجَّنِي فِي نُوح فَأَنَا أَوْلَى النَّاس بِنُوح، وَمَنْ حَاجَّنِي فِي إِبْرَاهِيمَ فَأَنَا أَوْلَى النَّاس بِإِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ حَاجَّنِي فِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأَنَا أَوْلَى النَّاس بِمُحَمَّدٍ، وَمَنْ حَاجَّنِي فِي النَّبِيِّينَ فَأَنَا أَوْلَى النَّاس بِالنَّبِيِّينَ، أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ فِي مُحْكَم كِتَابِهِ: {إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[3].**

1ـ هود: 86.

2ـ المهدي في القرآن – ص57.

3ـ آل عمران: 33.

فَأَنَا بَقِيَّةٌ مِنْ آدَمَ، وَذَخِيرَةٌ مِنْ نُوح، وَمُصْطَفًى مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَصَفْوَةٌ مِنْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، أَلاَ وَمَنْ حَاجَّنِي فِي كِتَابِ اللهِ فَأَنَا أَوْلَى النَّاس بِكِتَابِ اللهِ، أَلاَ وَمَنْ حَاجَّنِي فِي سُنَّةِ رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله فَأَنَا أَوْلَى النَّاس بِسُنَّةِ رَسُول اللهِ، فَأَنْشُدُ اللهَ مَنْ سَمِعَ كَلاَمِي الْيَوْمَ لَمَّا بَلَّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِب، وَأَسْأَلُكُمْ بِحَقِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَبِحَقِّي فَإِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقَّ الْقُرْبَى مِنْ رَسُول اللهِ إِلاَّ أَعْتَنْتُمُونَا وَمَنَعْتُمُونَا مِمَّنْ يَظْلِمُنَا، فَقَدْ أُخِفْنَا وَظُلِمْنَا وَطُرِدْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا وَبُغِيَ عَلَيْنَا، وَدُفِعْنَا عَنْ حَقِّنَا، فَأَوْتَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَيْنَا، فَاللهَ اللهَ فِينَا لاَ تَخْذُلُونَا وَانْصُرُونَا يَنْصُرْكُمُ اللهُ[1].

كان يتحدث، وأنا أشعر أن كل كلمة تجلو صدأ قلبي، وتزرع في عروقي قوة تكفي لقتال جيوش الأرض قاطبة. بمجرد أن أنهى عليه السلام خطبته، حدث أمر يفوق الخيال من بين الحشود المذهولة، وبطرق يعجز العقل عن تفسيرها، تقدم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، كأنهم اقتُلعوا من بلدانهم

1ـ بحار الأنوار ج٥٢ ص٢٣٧.

وأُسقطوا في صحن الكعبة، كانوا قادة جيشه الأوائل، أصحاب الألوية، الذين اجتمعوا في ساعة واحدة كما تجتمع قزع الخريف [1].

بدأت البيعة. تقدم القادة الثلاثمائة وثلاثة عشر يبايعونه على السمع والطاعة والجهاد، لم أستطع الانتظار أكثر شققت طريقي وسط الزحام الهادر، ومنتظر يتبعني، كنت أدفع الناس بقوة لا أعرف مصدرها، حتى وصلت إلى الصفوف الأولى، امتدت يدي المرتجفة لتعانق يده الشريفة. حين لمست كفه، سرى في جسدي تيار من نور، محا كل ألم، وكل ذكرى سيئة، وكل تعب نظرت في عينيه، فرأيت فيهما رحمة الله وغضبه معاً؛ بايعته بدمي، وروحي، وكل ذرة من كياني. لم يكد ينتهي إعلان الظهور والبيعة، حتى جن جنون السلطات، أُعطيت الأوامر باقتحام المسجد الحرام

---

1 ـ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (...فأتيحت له صحابته الثلاثمائة وثلاثة عشر قزعٌ كقزع الخريف فهم أصحاب الألوية، منهم من يفقد من فراشه ليلا فيصبح بمكّة، ومنهم من يرى يسير في السحاب نهارا يُعرف باسمه واسم أبيه وحليته ونسبه...).

الغيبة (للنعماني): ص312 ـ 313.

وتصفية الإمام ومن معه. اقتحمت القوات المدججة بالسلاح أبواب الحرم المكي. هنا، انتهت لغة الدموع، وبدأت لغة الحديد.

صرخ فينا أحد قادة الثلاثمائة وثلاثة عشر، موجهاً إيانا لتشكيل خط دفاع دائري حول الكعبة. أخرجت بندقيتي من تحت سترتي، ومنتظر فعل الشيء نفسه، لم نكن وحدنا، فالكثير من المنتظرين جاءوا من كل فج عميق أخرجوا أسلحتهم. تحولت ساحة الحرم إلى ميدان معركة؛ لكنها لم تكن معركة متكافئة روحياً كنا نقاتل بعقيدة من يرى الجنة المفتوحة أمامه، بينما كانوا يقاتلون بخوف المرتزقة. كنت أتصدى للقوات المقتحمة من جهة باب السلام، أطلق النار بدقة اكتسبتها من حرب شوارع الكوفة، كان منتظر يقنص القادة الميدانيين للعدو ببراعة مذهلة. التحمتُ مع ضابط ضخم الجثة حاول اختراق خطنا، نفدت ذخيرتي، فضربته بعقب البندقية على خوذته، ثم استللت حربتي وطعنته في كتفه مسقطاً إياه أرضاً، كنت أقاتل بشراسة أسد جريح، أثأر للنفس الزكية، وأثأر لكل قطرة دم سُفكت ظلماً. لم تصمد قوات الطاغوت طويلاً أمام زحف الغضب

المقدس خلال ساعات قليلة، تم تطهير المسجد الحرام بالكامل، ثم تمددت قواتنا - التي بدأت تتشكل كجيش نظامي تحت إمرة قادة الإمام - لتطهر شوارع مكة ومراكزها الحساسة. سقطت حكومة الحجاز في مكة. أشرقت شمس اليوم التالي على مدينة محررة، ترفرف فوق مبانيها رايات العدل، ويصدح في مآذنها أذان لم يختلط به نفاق الطغاة. في ذلك المساء، وفي ساحة قريبة من الحرم، وقفنا أنا ومنتظر وسط جيش عرمرم لقد اكتمل العقد، واجتمع عشرة آلاف مقاتل، هم النواة الصلبة لجيش الفتح العالمي. وقف منتظر يمسح الدم عن جبينه، وينظر إلى الحشود المنظمة، ثم التفت إليّ وعيناه تتلألآن ببريق النصر: لقد تمت الحجة يا منتظر، مكة تحررت، ولكن في الشمال مدينة تبكي وتستغيث جيش السفياني دنس طيبة، ومسجد رسول الله ينتظر من يطهره. نظرت إلى الراية العظمى المرفوعة في مقدمة الجيش، راية كُتب عليها البيعة لله، قبضت على سلاحي، ونظرت نحو الشمال، نحو المدينة المنورة. لقد انتهى زمن الانتظار، وبدأ زحف الثأر المقدس.

الفصل الخامس عشر

زحف الغضب المقدس وإرساء القواعد

لم تشهد رمال الحجاز زحفاً كزحفنا منذ أن طواها رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة. عشرة آلاف مقاتل، هم صفوة أهل الأرض، يتحركون بنظام يفوق الخيال، تظللهم سكينة إلهية، وتحف بهم ملائكة غلاظ شداد. لم نكن مجرد جيش، بل كنا تجسيداً لغضب الله المذخور وعقابه الذي طال انتظاره.

كان الطريق إلى المدينة المنورة محفوفاً بآثار الدمار الذي خلفه جيش السفياني الملعون قبل أن تبتلعه البيداء، عندما لاحت لنا نخيل طيبة، لم تكن المدينة كما قرأنا عنها، كانت تبكي بصمت فلول قوات حكومة الحجاز المنهارة وبعض المرتزقة حاولوا التحصن فيها، لكن هيهات!

لم يكد الإمام عليه السلام يرفع رايته على مشارف المدينة، حتى انقضضنا كالصواعق. كانت معركة خاطفة، طهرنا فيها الشوارع والأزقة، واقتحمنا مراكز القيادة كنت أقاتل بضراوة لا أرحم فيها من استباح حرمة مدينة رسول الله كنت أتنقل من ساتر إلى ساتر، أرمي بدقة، وأقتحم المباني مع فصائل المقاومة.

دخلنا المسجد النبوي الشريف وهناك، مشهد لا يمكن للكلمات أن تحتويه تقدم الإمام بخطوات ملؤها الشوق والأسى نحو القبر الشريف وقفنا خلفه صفوفاً، نبكي بصوت مكتوم.

همس منتظر لي ودموعه تبلل لحيته: انظر يا هادي هذه اللحظة التي انتظرها الأنبياء، لقد طُهرت مدينة الجد، وحان وقت الثأر الأكبر؛ لكن المقام هنا لن يطول، فالعاصمة العالمية تنتظر قائدها.

وبعد أن رتب الإمام شؤون الحجاز وولى عليها ولاته، صدّر الأمر الذي زلزل قلوبنا شوقاً: إلى العراق... إلى النجف [1].

كان الزحف نحو العراق أشبه بمسيرة النور التي تشق حجب الظلام. كبرت جموعنا، والتحق بنا آلاف من المؤمنين على طول الطريق، وعندما

---

1 ـ عن أبي جعفر عليه السلام ذكر المهدي فقال: يدخل الكوفة وبها ثلاث رايات قد اضطربت فتصفوا له ويدخل حتى يأتي المنبر فيخطب فلا يدري الناس ما يقول من البكاء.
فإذا كانت الجمعة الثانية سأله الناس أن يصلي بهم الجمعة فيأمر أن يخط له مسجد على الغري ويصلي بهم هناك ثم يأمر من يحفر من ظهر مشهد الحسين عليه السلام نهرا يجري إلى الغريين حتى ينزل الماء إلى النجف ويعمل على فوهته القناطر والأرحاء فكأني بالعجوز على رأسها مكتل فيه بر تأتي تلك الأرحاء فتطحنه بلا كراء. كشف الغمة في معرفة الائمة ج4 ص170.

لاحت لنا قباب النجف الأشرف، وتراءت لنا مآذن الكوفة، لم أستطع تمالك نفسي. سقطت على ركبتي أقبل تراب بلدي المحرر، التراب الذي قاتلنا عليه بالأمس القريب ودافعنا عنه بدمائنا. التفتُّ إلى منتظر، وقلت له بصوت متهدج: لقد عدنا يا أخي! غادرناها ونحن نبحث عن الخلاص، وعدنا إليها قادة في جيش الخلاص الكوفة اليوم ليست كما تركناها. رد منتظر وهو يمسح التراب عن وجهه، ونظرته ثاقبة نحو أزقة الكوفة: لا تفرح كثيراً يا هادي، صحيح أننا هزمنا السفياني هنا، وطردنا جيوش الكفر والنفاق الظاهر، لكن العراق لا يزال يخبئ في جوفه أخبث الناس... فتنة الباطن والنفاق استعد، فالسيف لم يغمد بعد.

لم تمضِ أيام على اتخاذ الإمام المهدي عليه السلام للكوفة عاصمة لدولته العالمية [1]، حتى برزت بقايا فلول الشيطان والمرتزقة المأجورين وبعض المحسوبين

---

1 ـ عن المفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام: قال المفضل: قلت: يا سيدي فأين تكون دار المهدي أو مجتمع المؤمنين؟ قال عليه السلام: دار مُلكه الكوفة، ومجلس حُكمه جامعها، وبيت ماله ومقسم غنائم المسلمين مسجد السهلة، وموضع خلواته الذكوات البيض من الغريين. بحار الأنوار- ج٥٣ ص ١١.

على المذهب، فوقفوا في طريق الإمام قائلين بوقاحة لا نظير لها: ارجع يا بن فاطمة، لا حاجة لنا فيك، فقد اكتفينا بالدين الذي عندنا!

كانت صدمة قاسية للجموع؛ كيف يخرج هؤلاء في عاصمة الإمام؟ لكن منتظر لم يكن متفاجئاً، قال لي وهو يجهز سلاحه: هؤلاء هم خوارج آخر الزمان؛ الذين يعبدون أهواءهم ومصالحهم الإمام لن يترك لهم عذراً، سيحاججهم، ولكنهم لن يستجيبوا. وعندما أصروا على عنادهم ورفعوا السلاح بوجه الجيش الإلهي، أشار الإمام بيده الشريفة، فصدر الأمر بالتطهير. هنا، شعرت بغضب يفوق غضبي على السفياني، هؤلاء منافقون يطعنون العقيدة من الخلف انطلقت مع كتيبتي نقتحم صفوفهم في منطقة يقال لها الرميلة أو أطراف الكوفة؛ كانت المعركة شرسة، لأنهم كانوا يقاتلون بعناد أعمى واجهت رجلاً منهم، كان يرفع سيفه بعد أن نفذت ذخيرة بندقيته ويصرخ بآيات القرآن وهو يهاجمني؛ تصديت لضربته ببندقيتي التي تحطمت من قوة الضربة، فاستللت حربتي ودارت بيننا مبارزة طاحنة كنت أنظر إلى عينيه، فلا أرى سوى ظلام دامس بضربة

واحدة دقيقة، أسقطت سيفه، وألحقته بمن سبقه. تم القضاء على هذه الشرذمة المجرمة في يوم واحد طُهرت الكوفة تماماً، ولم يبقَ فيها منافق ولا مرتاب؛ تحولت المدينة إلى ورشة عمل كونية؛ توسعت المساجد، ونُصبت الخيام لتعليم الناس القرآن، وأشرقت الأرض بنور ربها. في إحدى الليالي المقمرة، جلست مع منتظر على ضفاف نهر الفرات الذي عاد يجري هادئاً بعد أن اصطبغ بالدماء، كنا ننظف بنادقنا، ونستريح من عناء الأيام الماضية. تحدثت وأنا أنظر إلى انعكاس القمر على سطح الماء: لقد استقر الأمر في العراق يا منتظر، والحجاز آمنة؛ هل اقتربنا من النهاية؟ أحياناً أشعر أن روحي تكاد تفارق جسدي من شدة الشوق للقاء الله، وكأن مهمتي قد أوشكت على الانتهاء. وضع منتظر يده على كتفي بحنان وقال: يا هادي، لقد أبليت بلاءً حسناً، وكنت حقاً من رجال المرحلة؛ لكن النهاية لم تأتِ بعد انظر هناك... وأشار بيده نحو الغرب، نحو بلاد الشام. أكمل منتظر بنبرة جدية صارمة: السفياني الملعون لم يمت، لقد أعاد تنظيم صفوفه في دمشق والرملة، واليهود خلفه قد استنفروا كل قوتهم،

وأساطيل الروم الغربيين ترابط على سواحل المتوسط وتدعمهم بكل ما تملك، لقد شكلوا جبهة الكفر العالمية الموحدة لكسرنا. الإمام يجهز الآن جيش الزحف الأكبر، الملايين ستتحرك نحو الشام وفلسطين، مرج عذراء والقدس تنتظرنا يا أخي إنها الملحمة الكبرى، المأدبة التي ستنتهي بكسر الصليب وسقوط نجمة داود.

وقفت على قدمي، وشعرت بنسيم الفرات يلامس وجهي نظرت إلى يدي، وإلى قلبي الذي كان يدق بطمأنينة عجيبة كنت أعلم أن المعركة القادمة لن تكون كسابقاتها، وأنها ستتطلب دماءً طاهرة لتعبيد الطريق إلى الأقصى، التفتُّ إلى منتظر وابتسمت ابتسامة من أدرك مصيره ورضيه:

إذن، إلى الشام يا منتظر...

لنجعلها ملحمة لا تُنسى، حتى لو كانت آخر ما تراه عيناي من هذه الدنيا.

الفصل السادس عشر

الملحمة الكبرى ومأدبة مرج عذراء

لم يكن خروجنا من الكوفة مجرد زحف عسكري، بل كان أشبه بتدفق نهر من النور يبتلع مساحات الظلام المتبقية على وجه الأرض، ملايين المقاتلين، راياتهم تخفق في كبد السماء، وقلوبهم تنبض بإيقاع واحد: يا لثارات الحسين، كنت أسير في طليعة هذا الطوفان البشري، ألتفت يميناً ويساراً فلا أرى إلا وجوهاً تفيض بالسكينة، رغم أننا كنا مقبلين على أشرس معركة في تاريخ البشرية.

كنت أرى أبواباً من النور تُفتح لي، وأسمع أصواتاً ملائكية تهنئني، كنت أعرف في قرارة نفسي أن رحلتي في هذه الدنيا تقترب من ذروتها، وأن الجسد الذي حُرم من المشي لسنوات، سيُطوى قريباً في أشرف ميادين الأرض، لم أخبر منتظر بهذه المشاعر، لكنني كنت أطيل النظر إليه، إلى رفيق دربي الذي رافقني من ظلمات اليأس إلى نور اليقين. في الطريق نحو بلاد الشام، التفتَ إليّ منتظر، وكان الهواء يضرب وجهه الأسمر، قال بصوت يغمره الجلال: نحن الآن نقصد مرج عذراء، ضاحية دمشق التي اختلط ترابها بدماء الصحابي حجر بن عدي وأصحابه، هناك سيعسكر

الإمام عليه السلام، وهناك ستكون بداية الملحمة. السفياني الملعون يقف الآن في الشام، مدعوماً بكل ثقل الروم الغربيين وقوة اليهود؛ لقد استنفروا أساطيلهم، وأنزلوا قواتهم في الرملة وسواحل المتوسط، إنهم يعتقدون أنهم يواجهون جيشاً تقليدياً، ولا يعلمون أننا نحمل غضب السماء.

شعرت ببرودة تسري في عروقي، لا من الخوف، بل من رهبة الموقف. قلت لمنتظر وأنا أشد على قبضة سلاحي: وماذا عن الروم واليهود؟ كيف سنواجه أسلحتهم الفتاكة وأساطيلهم؟

ابتسم منتظر ابتسامة العارف الواثق، وأشار بيده نحو الأفق الشمالي الغربي: التدبير الإلهي يسبق كل شيء يا أخي لقد أرسل الإمام عليه السلام طليعة من أصحابه إلى غار في أنطاكية، ليستخرجوا منه التوراة والإنجيل الأصليين، وتابوت السكينة الذي فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون. سيحاجج الإمام بها الروم الغربيين، وسيسلم الكثير منهم عندما يرون الحق ساطعاً، مما سيحدث شقاً كبيراً في صفوف التحالف الغربي، لكن قادة الاستكبار واليهود والسفياني، ستعمى قلوبهم، وسيصرون على

القتال وعندها تحل المأدبة. وصلنا إلى مشارف دمشق، نزل الجيش الإلهي في مرج عذراء، كان المشهد مهيباً. خيام بيضاء تمتد على مرمى البصر، وتكبيرات تشق عنان السماء، في المقابل، كانت معسكرات السفياني والتحالف الغربي واليهودي تبدو ككتلة سوداء ضخمة، تتلألأ فيها فوهات المدافع وتدوي فوقها محركات الطائرات. طلب الإمام عليه السلام لقاء السفياني في محاولة أخيرة لإقامة الحجة، وبحسب ما روى لنا قادة المقدمة، فإن السفياني حين رأى هيبة الإمام ونور وجهه، ارتعدت فرائصه، وكاد أن يسلم ويبايع؛ لكن أخواله من بني كلب، وقادة اليهود من خلفهم، وبخوه وأثاروا فيه نخوة الجاهلية وحقد بني أمية، فارتد على عقبيه، وأعلن الحرب؛ في صبيحة اليوم التالي، صدر الأمر بالهجوم، لم أسمع في حياتي صرخة كصرخة لبيك يا مهدي التي انطلقت من آلاف الحناجر في لحظة واحدة. كانت الصرخة وحدها كفيلة بأن تزلزل الأرض تحت أقدام الأعداء. بدأت الملحمة الكبرى تقدمنا كالطوفان، كانت الطائرات المعادية تمطرنا بنيرانها، لكن القلوب كانت محصنة بيقين لا يخترقه

الرصاص. انخرطت مع كتيبتي في قتال شرس في التلال المحيطة بدمشق كنا نواجه قوات النخبة من جيش السفياني والمرتزقة الغربيين. في إحدى التلال، واجهنا تحصيناً خرسانياً كثيف النيران يمنع تقدم قواتنا. رأيت العشرات من إخوتي يسقطون شهداء؛ لم أشعر بنفسي إلا وأنا أندفع من خندقي، متجاوزاً خطوط النار، غير عابئ بالرصاص الذي كان يتطاير حولي كزخات المطر، كان منتظر يصرخ بي من الخلف ليغطيني: يا هادي! انتبه! لكنني كنت في عالم آخر كنت أرى الهدف فقط. اقتربت من التحصين، سحبت قنبلتين يدويتين، ونزعت صماميهما، ثم قفزت فوق المتراس، وألقيتهما في فتحة التهوية، ثم ألقيت بنفسي خلف صخرة ضخمة. دوى انفجار هائل هز التل بأكمله، وتصاعدت أعمدة الدخان انطلق منتظر وكتيبتنا ملبين لبيك يا حسين، واقتحموا الموقع. تقدم منتظر نحوي، وسحبني من يدي ليوقفني، وعيناه تلمعان بمزيج من العتاب والفخر: أتريد أن تسبقني إلى الجنة يا مجنون؟ ضحكت وأنا أمسح الدخان عن وجهي: الجنة تنادينا يا منتظر، وأنا لم أعد أطيق الانتظار.

انهارت دفاعات السفياني في دمشق وحمص، وبدأ جيشه الملعون يتراجع بشكل فوضوي نحو الساحل ونحو فلسطين، حيث يتمركز اليهود والروم. كانت جثث أعداء الله تملأ السهول والوديان، مصداقاً لما قرأناه يوماً عن مأدبة طير السماء، حيث أكلت السباع والطيور من لحوم الجبارين حتى شبعت. لكن المعركة لم تكن قد حُسمت بعد، فقد تجمعت فلول السفياني مع القوة الضاربة لليهود والروم في الرملة وسواحل عكا وصور وطبريا، في خط دفاع أخير لحماية كيانهم الغاصب. في تلك الليلة، وقفنا أنا ومنتظر ننظر إلى السماء التي أضاءتها انفجارات بعيدة؛ كان الإمام المهدي عليه السلام يجهز جيوشه للزحف الأخير نحو القدس.

وضعت يدي على قلبي، الذي كان يخفق بشوق جارف، التفتُّ إلى منتظر، وأمسكت بكتفيه بقوة، ونظرت في عينيه طويلاً حتى دمعت عيناي، وقلت بصوت خافت يعتصره الشوق: يا منتظر إذا دخلنا الأقصى، ورأيتني قد غبت عنك في زحام الموت، فلا تبحث عني لتبكي، بل انظر إلى قبة الصخرة وابتسم...

فإن روحي ستكون هناك، ترفرف مع الملائكة تنتظر صلاتكم.

تغير وجه منتظر، وأمسك بيدي بقوة كأنه يخشى أن أفلت منه، وقال بصوت مخنوق: ما هذا الكلام يا هادي؟ سندخلها معاً، وسنصلي خلف الإمام معاً، وسنبني دولة العدل معاً. ابتسمت، ولم أجبه، كنت أعلم أن المعركة القادمة على أبواب القدس، هي آخر عهدي بالتراب، وأول عهدي بالسماء.

الفصل السابع عشر

صلاة في الأقصى ومعراج منتظر

أنا هادي... أكتب لكم بقلب قد لامس البصيرة، وبأنفاس تتسارع لتلحق بركب الخلود، كانت رياح البحر الأبيض المتوسط تحمل إلينا رائحة بيارات البرتقال الحزينة، ممزوجة برائحة البارود والموت، زحفنا الضخم لم يتوقف بعد مرج عذراء، لقد انكسر الطوق، وبدأت فلول جيش السفياني وقوات الروم واليهود تتراجع مذعورة نحو معقلها الأخير: جبال القدس وسواحل فلسطين.

كان الطريق صعوداً نحو زهرة المدائن محفوفاً بالنار. التحالف الغربي ألقى بكل ثقله العسكري، معتقدين أن التكنولوجيا والحديد ستقف حائلاً أمام إرادة السماء؛ لكن جيش الغضب المقدس كان يجتاح التحصينات كالسيل العارم، كنت في مقدمة قوات الاقتحام الممهدة لدولة العدل الالهي، أتقدم وبجانبي منتظر الذي لم تفارق شفتيه آيات القرآن.

وصلنا إلى تخوم القدس القديمة المآذن تعانق السماء، وقبة الصخرة تتلألأ من بعيد كجوهرة أسيرة تستغيث، كان العدو قد تحصن عند باب

الأسباط وأسوار المدينة، منشراً قناصته وقوات نخبته في كل زاوية، صدر الأمر من القيادة المهدوية ببدء الهجوم الشامل لتطهير الأقصى.

صرخت بأعلى صوتي: يا لثارات الحسين! وانطلقت أركض في الساحة المفتوحة المكتظة بالنيران؛ كنت أرى الرصاص يتطاير حولي كأسراب الدبابير، لكنني لم أشعر بالخوف؛ تذكرت أيام عجزي الطويلة على ذلك الكرسي، وأدركت في تلك اللحظة أن الله ادخر لي هذه الأقدام لأطأ بها ساحات الأقصى محرراً. اشتعلت معركة التحامية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، استخدم العدو أسلحة فتاكة لإيقاف زحفنا، وسقط العشرات من إخوتي حولي، في تلك اللحظة الحرجة، تمترست فرقة من المرتزقة الغربيين خلف متراس حصين يسد المدخل الرئيسي للمسجد، وكانوا يحصدون المتقدمين حصداً. نظرت إلى منتظر الذي كان يوفر لي التغطية النارية، وابتسمت له ابتسامتي الأخيرة أومأت له برأسي... لقد حانت اللحظة انطلقت كالسهم، غير عابئ بنداءات منتظر المستميتة. تجاوزت الخطوط، وتلقيت الرصاصة الأولى في كتفي... لم أتوقف.

الرصاصة الثانية اخترقت خاصرتي واصلت الركض وأنا أنزف دماً شعرت ببرودته على جسدي المحترق، وصلت إلى المتراس، أفرغت مخزن بندقيتي في صدورهم، ثم ألقيت آخر قنابلي في قلب تحصيناتهم.

دوى الانفجار، وانهار السد المنيع، وانفتح الطريق أمام جند الإمام؛ لكن جسدي المثخن بالجراح لم يعد يحتمل؛ سقطتُ على الأرض المضرجة بالدماء، على بعد أمتار من باحات المسجد الأقصى. غامت الرؤية في عيني، وبدأ ضجيج المعركة يتلاشى ليحل محله سكون عجيب، سمعت خطوات مسرعة تقترب مني، كان منتظر، سقط على ركبتيه بجانبي، رفع رأسي ووضعه في حجره، ودموعه تنهمر كالمطر على وجهي، حاولت أن أتحدث، فخرج صوتي واهناً: ألم... ألم نتفق يا منتظر... أن تبتسم؟ ابتسم منتظر وسط دموعه الغزيرة، وعض على شفتيه بقوة ليكتم نحيبه.

وفجأة... تراجع منتظر قليلاً، وانحنى خاشعاً. انشق الزحام، وهبط نور أزاح كل ظلمة، اقترب الإمام المهدي عليه السلام، وجلس بجانبي رفع رأسي بيديه الشريفتين اللتين تحملان عبق الأنبياء، ووضعه في حجره.

في تلك اللحظة، توقف ألمي تماماً. نظرت في عينيه، فرأيت فيهما حنان السماوات والأرض، مسح الإمام بيده الشريفة على جبيني، وابتسم لي ابتسامة أضاءت روحي، وقال بصوت يسيل رقة وجلالاً: نم قرير العين يا هادي، لقد أديت الأمانة، ووفيت بالعهد، جسدك الذي انهكته طول السنوات، قادك اليوم إلى قمة المجد، أنت في ضيافة جدي الحسين عليه السلام الآن. نظرت إلى قبة الصخرة التي باتت واضحة أمامي، ثم نظرت إلى منتظر، ثم استقرت عيناي على وجه الإمام، أخذت نفساً عميقاً، امتلأ صدري برائحة مسك لم أعهدها... وأغمضت عيني للمرة الأخيرة، تاركاً جسدي على تراب الأقصى، ومحلقاً بروحي نحو مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أنا منتظر.. أستلم الآن راية السرد، وحبري ممتزج بدموع الفراق ونشوة النصر الموعود. استشهد أخي ورفيق دربي هادي بين يدي إمام زمانه، نال ما كان يصبو إليه، حيث كان يدعو ليل نهار بأن يرزق الشهادة بين يدي صاحب الزمان، فتركني وحيداً أكمل المسيرة في عالم بدأ يتطهر من رجس الشياطين، بعد استشهاده واقتحامنا لأبواب الأقصى، انهارت معنويات جيش السفياني واليهود تماماً. دخلنا باحات المسجد الأقصى مكبرين، مهللين، ترفرف فوق رؤوسنا رايات البيعة لله. لم يطل الأمر حتى تم إلقاء القبض على السفياني الملعون، وجدوه مختبئاً ذليلاً مهزوماً بعد أن تخلى عنه أسياده الغربيون، جُلب مكبلاً إلى بحيرة طبريا [1]، وهناك نال جزاءه العادل، وقُطعت رأسه [2] التي طالما دبرت المجازر وسفكت دماء الأبرياء

---

1 ـ وفي روايات أخرى تحت شجرة قرب القدس.

2 ـ عن الإمام الصادق عليه السلام: (فيُخرج اللهّ على السفياني من أهلِ المشرق وزير المهدي فيهزم السفياني إلى الشام فيقصده المهديّ فيذبحه عند عتبة بيت المقدس كما تذبح الشاة ويغنمه ومن معه من أخواله الذين هم جُندُه من بني كلب ولا أكثر من تلك الغنيمة)

شرح إحقاق الحق – السيد المرعشي ج ٢٩ ص ٦٢٠.

بسقوطه، انطوت أغمق صفحة من صفحات الظلم الأموي المتجدد.

لكن الآية الكبرى، والمنعطف التاريخي الذي غير وجه الأرض، حدث في وقت الصلاة. كنا قد اصطففنا في المسجد الأقصى استعداداً لإقامة الصلاة خلف الإمام المهدي عليه السلام، كان الوقت عصراً وفجأة، اهتزت السماء، وانشقت الغيوم عن نور باهر لم تره العيون من قبل، تسمرت الأبصار نحو الأعلى... كان ينزل من السماء بهدوء وسكينة، تحفه الملائكة، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، يرتدي ثوبين ممصرين. إنه نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام، روح الله وكلمته، قد هبط إلى الأرض!

علت صيحات التحميد والتهليل في صفوفنا، هبط السيد المسيح في باحات الأقصى، وتقدم بخطوات تفيض نوراً نحو الإمام المهدي. استقبله الإمام بحفاوة الأنبياء، وتعانقا في مشهد جسد التقاء رسالات السماء وتكاملها.تراجع الإمام المهدي عليه السلام خطوة إلى الوراء، وأشار بيده الشريفة نحو المحراب، قائلاً بتواضع الأولياء: تقدم يا روح الله، وصلّ بنا، ابتسم النبي عيسى عليه السلام، ووضع يده على كتف الإمام المهدي قائلاً

كلمته الخالدة التي سمعها العالم أجمع: بل لك أُقيمت الصلاة... إنما بُعثت وزيراً ولم أُبعث أميراً، إنكم أهل بيت لا يتقدمكم أحد.

وتقدم الإمام المهدي وصلى بنا، وصلى السيد المسيح عليه السلام خلفه [1]. في الصف الأول، كانت تلك الصلاة بمثابة الإعلان النهائي لانتصار الحق. وما إن نقلت وسائل الإعلام ـ التي سيطرت عليها قواتنا ـ مشهد صلاة السيد المسيح خلف الإمام المهدي عليهما السلام، حتى حدث الزلزال الأكبر في المعسكر الغربي. الملايين من المسيحيين في أوروبا وأمريكا الذين كانوا يراقبون المشهد، ألقوا أسلحتهم، لقد رأوا مخلصهم الذي انتظروه ألفي عام يصلي خلف إمام المسلمين! انهارت جيوش الروم والتحالف الغربي طواعية، أعلنوا إسلامهم أفواجاً، وتبرأوا من قادة الاستكبار واليهود

1ـ في كمال الدين نقلاً عن بحار الأنوار: عن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: القائم منصور بالرعب مؤيد بالنصر، تطوى له الأرض وتظهر له الكنوز، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله (عزَّ وجلَّ) به دينه ولو كره المشركون، فلا يبقي في الأرض خراب إلّا عمر، وينزل روح الله عيسى بن مريم عليه السلام فيصلي خلفه.
بحار الأنوار: ج٥٢، ص١٩٢.

الذين خدعوهم وحرضوهم على القتال، انهار الكيان الصهيوني تماماً، ولم يبقَ حجر ولا مدر إلا ونادى: يا مسلم، هنا يختبئ ظالم. وقفت في باحة الأقصى بعد الصلاة، أنظر إلى السماء الصافية؛ الهواء بات نقياً، والوجوه تفيض بالسلام، اقتربت من المكان الذي ارتقى فيه هادي، مسحت بيدي على التراب الذي ارتوى بدمه الطاهر، وهمست له: لقد انتصرنا يا أخي... صلينا في الأقصى كما وعدتني، ونزل روح الله، وسقط الطغاة نم الآن، فإن الأرض قد أورثها الله عباده الصالحين، وبدأ عصر العدل الذي حلمنا به طويلاً.

الفصل الثامن عشر

شمس العدل وإشراقة الأرض (خاتمة المطاف)

أنا منتظر... أكتب هذه السطور بمداد من نور، بعد أن جفت أنهار الدم، وتلاشت غيوم الدخان التي حجبت شمس الإنسانية لقرون، أكتب لكم من الكوفة العلوية، التي لم تعد مجرد مدينة في قلب العراق، بل باتت عاصمة الأرض، ومحط أنظار الكون، وقبلة العقول المهاجرة نحو الكمال المطلق. بعد الملحمة الكبرى في القدس ونزول السيد المسيح عليه السلام، لم يعد العالم كما كان، لقد سقطت المنظومة العالمية الطاغوتية، لا بحد السيف فحسب، بل بانهيار قواعدها الأخلاقية أمام سطوع الحق، الجيوش التي روعت الشعوب تفككت، والحدود الوهمية التي مزقت الأمة الواحدة ذابت كالملح في الماء، عدنا من الشام إلى الكوفة، نطوي الأرض طياً، لا تحف بنا الدبابات، بل تحف بنا ملائكة الرحمة، وتظللنا غيوم السكينة.

في الأيام الأولى لاستقرار الدولة العالمية، كنت أمشي في شوارع الكوفة التي توسعت بشكل يعجز العقل عن تصوره؛ الروايات التي كنت أقرأها لهادي، تجسدت أمامي واقعاً يلامس الحواس لقد أمر الإمام عليه السلام بشق أنهار جديدة، وتوسعة المساجد حتى بات مسجد الكوفة يتسع لمئات

الآلاف من المصلين، لم تعد هناك أزقة ضيقة ولا بيوت متهاوية، لقد أعيد تخطيط الأرض بهندسة إلهية تمزج بين جمال الطبيعة وتطور العمران وأما أعظم ما شهدته عيناي، فلم يكن في البنيان، بل في الإنسان.

في إحدى الجُمَع، وقفت أستمع إلى الإمام وهو يخطب في الناس، تذكرت الرواية التي طالما استوقفتني: إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم [1]. لقد رأيت أثر هذه اليد الغيبية في عيون الناس، تلاشت الأحقاد والضغائن التي كانت تفتك بالمجتمعات، ومُحيت العصبيات القبلية والقومية أصبح الإنسان ينظر إلى أخيه الإنسان كروح متصلة به، لا كمنافس يجب إقصاؤه.

لقد أشرقت الأرض بنور ربها وأخرجت الأرض كنوزها وأفلاذ كبدها من الذهب والفضة والمعادن، حتى تكدست بين يدي الإمام عليه السلام كنت أقف في السوق، فأرى المنادي ينادي: مَن له حاجة في المال؟ فلا يأتيه أحد! نبحث عن فقير لنعطيه الزكاة فلا نجد؛ لقد استغنى الناس بفضل الله

---

1 ـ لكافي: ج١، ص٢٥، ح٢١.

وعدل إمامه. تذكرت الطوابير الطويلة للفقراء، والمجاعات التي كانت تفتك بشعوب بأكملها، فبكيت من فرط ما أرى من غنى وعزة. ولم يقف الأمر عند العدل الاقتصادي، بل حدث الانفجار المعرفي الأعظم، كنت أنا بطبيعتي باحثاً شغوفاً بالعلم، لكن ما حدث في عصر الظهور جعل كل علوم البشرية السابقة تبدو كقطرة في محيط، لقد جاء في الأحاديث: العلم سبعة وعشرون حرفاً، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان... فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة وعشرين حرفاً [1]، انفتحت أبواب السماء للأرض، وتطورت التكنولوجيا بشكل أذهل العقول، لكنه تطور مسخّر لخدمة الإنسان وراحته، لا لتدميره، فُكت شفرات الأمراض المستعصية، وامتدت الأعمار، وأصبحت قوى الطبيعة طوع أمر المؤمنين. في وسط هذه الأجواء الملائكية، وحالة الأمن المطلق التي جعلت المرأة تسافر من أقصى الأرض إلى أقصاها لا تخاف إلا الله، كنت أجد نفسي أحياناً أختلي بنفسي على ضفاف نهر الفرات.

---

1 ـ مختصر البصائر ص 117.

هناك، حيث يجري الماء رقراقاً هادئاً، أخرج نسخي القديمة والممزقة من كتب الغيبة، أتحسس أوراقها التي شهدت دموعنا وخوفنا ويقيننا، لم تعد هذا الكتب سفراً للغيب، بل تحولت إلى كتب تاريخ، أنظر إلى الفراغ بجانبي، وأتخيل هادي يجلس معي.

يا هادي... يا رفيق الدرب والدم، هل ترى ما نرى من عليائك؟ أتذكر حين كنت سجيناً لكرسيك الكهربائي في تلك الغرفة الصغيرة؟ لقد أدركت الآن سر شفائك المبكر قبل الظهور، لم يكن شفاؤك مجرد كرامة فردية، بل كان نبوءة مصغرة لما سيحدث للعالم، لقد كانت الأرض كلها كسيحة، مقعدة، مشلولة بالظلم والطغيان والحروب، تماماً كما كان جسدك، وبظهور الإمام، شُفيت الأرض ووقفت على قدميها واستعادت عافيتها، كما وقفت أنت وركضت في ساحات الوغى.

أنت لم تمت يا هادي، الذين ماتوا حقاً هم أولئك الذين عاشوا لأنفسهم وماتوا لشهواتهم، أما أنت، فقد صعدت روحك من أقدس بقاع الأرض، لتكون شاهداً على هذا العصر.

في كل مرة أرى فيها طفلاً يلعب بأمان دون خوف من صاروخ غادر، أتذكرك، وفي كل مرة أصلي فيها خلف الإمامعليه السلام في مسجد الكوفة، وأسمع صوته الشريف يقرأ القرآن بصوت لم تسمع الدنيا أعذب منه، ألتفت يميناً، فأكاد أراك ساجداً تبكي من خشية الله.

لقد طُويت صفحة الانتظار المرير، ومُزقت دفاتر الظلم، وبدأ عصر الظهور الذي لا غروب بعده؛ هذه هي دولة الإنسان، وهذا هو وعد الله الذي لا يُخلف، وتلك هي الأيام التي أورثها الله للمستضعفين، فجعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين.

خروج الأعور الدجال

في ذروة التطور العلمي والرخاء المادي والروحي، بدأ يتململ بعض من طال عليهم الأمد وقست قلوبهم، تماماً كما ملّ بنو إسرائيل من المن والسلوى وطلبوا بصل الأرض وثومها، بدأ بعض الناس يضجرون من المثالية المطلقة؛ كانوا يشتاقون إلى فوضى الشهوات، وإلى تمايز الطبقات، وإلى نشوة التمرد. وهنا، وفي غفلة من المتراخين، انفتح باب الفتنة الأشرس، ليس بقوة عسكرية، بل بسحرٍ وخداع يفوق الوصف.

بدأت التقارير ترد إلى عاصمة الإمام عليه السلام عن ظهور رجل غريب، رجل أعور، ممسوح العين اليمنى، وكأن عينه اليسرى كوكب دري، ينادي بأعلى صوته فيسمعه من بين الخافقين، لم يكن هذا الرجل مجرد مشعوذ تقليدي، لقد استغل طفرة العلوم التي بثها الإمام، ودمجها بالسحر الأسود المندثر ليصنع وهماً كونياً مرعباً.

قلت في خاطرتي إنه الدجال! لقد وظف تكنولوجيا الأبعاد والتحكم المناخي والهندسة الوراثية بطريقة شيطانية، معه جبل من طعام يراه الجائع

وكأنه حقيقة، ونهر من ماء، يأمر السماء فتمطر على أتباعه وهمياً، ويأمر الأرض فتنبت، إنه يحيي الموتى أو هكذا يخيل للناس بفعل سحره المتقدم. إنها فتنة تستهدف الحواس المباشرة للإنسان!

كان وليد ـ والذي شفي ببركة دعاء الإمام من غيبوبته ـ يحلل طبيعة الأتباع الذين بدؤوا يتوافدون على الدجال، وقال بأسى: انظر إلى أتباعه! ليسوا من أهل البصائر، أغلبهم من الذين احتفظوا بنفاقهم في دولة العدل، ومن أصحاب الشهوات الدنيئة، والذين لم يتحملوا عدالة التوزيع. الدجال يحلل لهم المحرمات، ويبيح لهم ما منعته شريعة السماء. إنه يمثل الانفلات الذي تشتهيه النفس الأمارة بالسوء، مكتوب بين عينيه كافر ـ حيث أنه يدعو ضد الله فكفره صريح يراه المؤمنين ـ يقرأها كل مؤمن، لكن أعين المنافقين عُميت عنها. تجهزنا للحرب مجدداً؛ لكن هذه الحرب لم تكن تحتاج إلى سيوف لقطع الرقاب، بل كانت تحتاج إلى يقين يقطع حبال الوهم.

أصدر الإمام المهدي عليه السلام أوامره بالتحرك، وتشرفنا بأن نكون في جحافل النور التي سارت لإنهاء هذا العبث. تقدم جيشنا، وكان في طليعته الإمام المهدي عليه السلام. التقى الجيشان في أرض الشام، بالقرب من عقبة أفيق [1]. كان معسكر الدجال يضج بالصخب والطبول والمزامير والمحرمات، تحيط بهم هالة من الأوهام البصرية والشيطانية التي تجعلهم يبدون وكأنهم قوة لا تُقهر، وفي المقابل، كان معسكرنا يلفه سكينة التوحيد، يقوده رجال لم تغيرهم العقود الزاهية ولم تركن قلوبهم لزخرف الأرض.

تقدم الدجال متبجحاً، يحيط به أتباعه من كل حدب وصوب، وهنا انشق صفنا الأمامي، قائدنا المهدي عليه السلام كان يحمل حربة تتلألأ بنور السماء، وما

---

1 ـ عن النزال بن سبرة، قال: خطبنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (في حديث طويل)، فقام إليه صعصعة بن صوحان، فقال: يا أمير المؤمنين، متى يخرج الدجال؟ فقال له علي عليه السلام: اقعد، فقد سمع الله كلامك... – إلى أن قال: – يقتله الله (عزّ وجلّ) بالشام على عقبة تعرف بعقبة أفيق، لثلاث ساعات مضت من يوم الجمعة، على يد من يصلّي المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام خلفه. كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ص٥٢٧.

إن وقع بصر الدجال على الإمام المهدي عليه السلام، حتى بدأ سحره يتبدد، وهالته الوهمية تتلاشى، ذاب الدجال رعباً كما يذوب الملح في الماء .

ركض الدجال هارباً، لكن الإمام عليه السلام أدركه عند عقبة أفيق، وبضربة واحدة من حربته، أسقطه صريعاً، بمقتل الدجال، انهار سحره تماماً.

تكشفت الحقائق لأتباعه، فرأوا أن ما حسبوه جبالاً من طعام لم يكن سوى جيف وأقذار، وما ظنوه جنة لم يكن سوى نار ورماد، تشتت أتباعه، وطاردهم جيشنا حتى طهرنا الأرض من آخر بذرة للتمرد الشيطاني.

عادت الأرض إلى استقرارها الكامل، وحكم الإمام المهدي عليه السلام سنوات، عشنا في ظله حياة لا يتخيلها العقل البشري المحدود، حياة تمنينا ألا تنتهي أبداً.

لكن... قانون الأرض الذي سُنّ على الأنبياء والأوصياء لا يُستثنى منه أحد {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [1].

1ـ الزمر: 30

في أواخر عهد الإمام عليه السلام، وبعد أن أُديت الأمانة، وكملت الحجة، وطُويت صفحة الظلم من ذاكرة الكون، وقع الحدث الذي صدع قلوبنا وتركنا معلقين في فراغ من الحزن المطلق. كنت أجلس في إحدى زوايا مسجد السهلة، حين سمعت ضجة لم أسمع مثلها منذ يوم الظهور، لم تكن ضجة حرب، بل كانت نحيباً يمزق نياط القلب. ركضت فرأيت وليد يسقط على ركبتيه يلطم وجهه، ويصرخ: وا إماماه! وا غوثاه!

اقتربت، والدم يتجمد في عروقي. على فراشه البسيط، كان الإمام الموعود، أمل البشرية، وبقية الله، مسجىً، لقد امتدت إليه يد الغدر، لتختم مسيرته بالشهادة، كما خُتمت مسيرة آبائه الطاهرين [1].

سقطتُ على الأرض، ولم أستطع الوقوف، عجزت ساقاي عن حملي بكيت حتى شعرت بأن روحي ستخرج مع أنفاسي كيف نعيش في أرض لا يمشي عليها المهدي؟ من سيدير هذا الكون المترامي الأطراف؟ وفي

---

1 ـ عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال: ما منّا إلّا مسموم أو مقتول. كفاية الأثر للخزار القمي ـ ص227.

غمرة هذا اليأس الكوني، والفجيعة التي أظلمت لها الشمس، تذكرت القاعدة العقائدية الصارمة: لا يُغسل الإمام إلا إمام.

إذا كان المهدي عليه السلام قد مضى، فمن سيغسله؟ هل خلت الأرض من حجة؟

في تلك اللحظة المهيبة، وبينما كنا ننتحب حول الجسد الطاهر، انشق جدار المسجد عن نور يخطف الأبصار؛ هدأ النحيب فجأة، دخل رجلٌ عظيم الهيبة، بوجه يحمل نور النبوة وجراح كربلاء. تراجعنا جميعاً إلى الخلف ونحن نرتجف.. .إنه الإمام الحسين بن علي عليهما السلام! لقد انشقت الأرض، وعاد سيد الشهداء في أولى محطات الرجعة، ليقوم بتجهيز ولده المهدي، وليستلم راية قيادة الأرض من بعده.

الفصل التاسع عشر

بوابات الخلود: انشقاق الأرض وبدء دولة الرجعة

إنه الإمام الحسين بن علي عليهما السلام [1]، العائد من بوابات الغيب، والمؤسس الأول لمسيرة التضحية التي قطف الأمام المهدي عليه السلام ثمارها؛ لقد انشقت الأرض، وعاد سيد الشهداء في أولى محطات الرجعة، ليقوم بأمر ولده .

تراجعنا جميعاً إلى الخلف بخضوع وإجلال؛ لم يجرؤ أحد على النطق؛ كانت الملائكة تحف بالمكان، وأجنحتها تلامس وجوهنا الباكية، دخل الإمام الحسين عليه السلام إلى الغرفة التي سُجي فيها الجسد الطاهر، وتولى بنفسه تجهيز

---

1 ـ روى الكليني بإسناده عن عبد الله بن القاسم البطل عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: {وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ} قال: قتل علي بن أبي طالب عليه السلام وطعن الحسن عليه السلام. {وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً} قال: قتل الحسين عليه السلام. {فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما}: فإذا جاء نصر دم الحسين عليه السلام {بَعَثْنا عَلَيْكُم عِباداً لَنا أُولِي بأسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ}؛ قوم يبعثهم الله قبل خروج القائم عليه السلام، فلا يدعون وترا لآل محمد إلا قتلوه. {وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا}: خروج القائم عليه السلام. {ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِم}: خروج الحسين عليه السلام في سبعين من أصحابه، عليهم البيض المذهب، لكل بيضة وجهان، المؤدون إلى الناس أن هذا الحسين قد خرج حتى لايشك المؤمنون فيه، وأنه ليس بدجال ولا شيطان، والحجة القائم بين أظهرهم، فإذا استقرت المعرفة في قلوب المؤمنين أنه الحسين عليه السلام، جاء الحجة الموت، فيكون الذي يغسله ويكفنه ويحنطه ويلحده في حفرته الحسين بن علي عليه السلام، ولا يلي الوصي إلا الوصي. الكافي- ج ١٥ ص ٤٧٥.

الإمام عليه السلام. وبعد الصلاة التي أمّنا فيها الإمام الحسين عليه السلام، وحُمل فيها النعش على أطراف الأنامل، وُوري الإمام المهدي عليه السلام الثرى في قبره الشريف، وقف الإمام الحسين ينفض التراب عن يديه، ويلقي النظرة الأخيرة على حبيب السماء، ثم استدار نحو الجموع المليونية، ليعلن بدء العهد الجديد، عهد الرجعة الفعلي. لم تكن الرجعة مقتصرة على الأئمة، بل انشقت الأرض عن خيرة المؤمنين الذين محصوا إيماناً [1]، رأينا بأم أعيننا كيف عاد أصحاب أهل البيت عليهم السلام الأوائل. عاد سلمان، والمقداد، ومالك الأشتر [2]. ليعيشوا في دولة الحق المطلق التي طالما سفكت دماؤهم لأجل التمهيد لها. عشنا في ظل حكم الإمام الحسين عليه السلام سنين لا

---

1 ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال :من دعا إلى اللهَّ تعالى أربعين صباحاً بهذا العهد كان من أنصار قائمنا فإن مات قبله أخرجه اللهَّ تعالى من قبره وأعطاه بكل كلمة ألف حسنة ومحا عنه ألف سيئة. مفاتيح الجنان (دعاء العهد) ـ ص613.

2 ـ لقد خصّ أئمتنا عليهم السلام بعض الكرام من أتباعهم وأنصارهم بتسميتهم صريحاً في الأخبار والحديث عن أنهم سيرجعون عند قيام الإمام صاحب الزمان عليه السلام ومن هؤلاء: عبد اللهَّ بن شريك العامري ويوشع بن نون وسلمان وأبو دجانة الأنصاري والمقداد ومالك الأشتر وحمران بن أعين وميسّر بن عبد العزيز. ميزان الحكمة، حديث: 6939ـ 6938.

يعلم عددها إلا الله؛ امتدت الأعمار، وتلاشت الأمراض، وطالت أيام حكمه حتى سقط حاجباه على عينيه من الكبر. توالت الرجعة، فعاد أمير المؤمنين عليه السلام، وعاد رسول الله صلى الله عليه وآله [1]، في دورات من الكمال المطلق، حيث حكمت السماء الأرض بلا أي فاصل أو حاجب.

1 ـ عن الإمام الباقر عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام سيرجعان. ميزان الحكمة، حديث 6933.

الفصل العشرون

أشراط الساعة الكبرى والنفخ في الصور.. طي السجل

مرت القرون والأحقاب، ولم نعد السنين كما كنّا في عالمنا القديم المريض الزمن في عصر الرجعة بقيادة الأئمة الطاهرين فقد قسوته وأصبح نهراً عذباً ينساب نحو اللانهاية. كنت أجلس مع وليد على جبل يطل على مدينة واسعة تتلألأ بنور لم تصنعه كهرباء، بل صنعه صفاء الأنفس، فجأة، تغير لون السماء لم يكن هذا التغير شبيهاً بأي ظاهرة فلكية، لقد انطفأ نور الشمس المألوف، وظهرت غيوم دخانية كثيفة بدأت تغلف الغلاف الجوي بأسره.

قال وليد، وعيناه تتسعان بدهشة ممزوجة بالرهبة: الدخان! ((يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ)) [1]. لقد انتهى عصر الاستقرار، وبدأت أشراط الساعة الكبرى يا منتظر. نظرت نحو الأفق، فرأيت ما يزلزل العقول الشمس، التي اعتادت أن تشرق من المشرق منذ أن دُحيت الأرض،

1ـ الدخان: 10

تراجعت في مسارها، وبدأت تشرق من المغرب! [1]. سقط وليد على ركبتيه، متمتماً: طُوي بساط التوبة. ((يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ))[2]. الكون يستعد للإغلاق، والقوانين الفيزيائية تُفكك استعداداً للنفخة الكبرى. توقف كل شيء، الرياح سكنت، والأنهار جفت أطرافها، والأرض بدأت تستعد لطي سجلها. نظرت إلى رفيقيّ وليد...

تآلفت قلوبنا في رحلة بدأت من قاع الانكسار الجسدي والروحي، وانتهت في ذروة الكمال الكوني، قلت له ودموع الشوق للقاء الله تملأ عيني: لقد طوينا مع الشهيد هادي ميادين الأرض في رحلتنا مع الإمام المهدي عليه السلام والآن، تُطوى السماء كطي السجل للكتب وفجأة... صمت

---

1 ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عشر قبل الساعة لابد منها: السفياني، والدجال، والدخان، والدابة وخروج القائم، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عليه السلام، وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر... الغيبة للشيخ الطوسي: ص٤٣٦.

2 ـ الأنعام: 158.

الكون بأسره ثم شق الفضاء صوتٌ لا يشبه أي صوت سُمع قط، إنه النفخ في الصور [1]. صوتٌ بدأ خافتاً ثم تصاعد حتى صدع الجبال، ومزق السماوات، وأذاب الكواكب شعرت بروحي تُسحب من جسدي بخفة ورقة، تتجه نحو النور المطلق، تلاشت الكوفة، وتلاشت الأرض، وذاب كل ما هو مادي في بياض ناصع لا نهاية له.

لم يبقَ ظلم، لم يبقَ ألم، ولم تبقَ دماء عاد كل شيء إلى بارئه **{لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [2].

النهاية

هنا... تبدأ الحياة الحقيقية الدائمة مع رواية (رحلتي في الآخرة) الجزء الثالث والأخير من سلسلة (رحلتي).

---

1 ـ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾. الزمر: 68.

2 ـ غافر: 16

الفهرس

المقدمة..... 7

الفصل الأول: إرهاصات الفجر وسط ركام الفتن 12

الفصل الثاني: أنين الندبة وانكسار الجسد 18

الفصل الثالث: تقاطع الرايات واصطكاك الأمم..... 32

الفصل الرابع: الرحلة بين قساوسة روما وحاخامات اليهود 44

الفصل الخامس: حكماء الشرق.. من معابد الهندوس إلى أديرة

البوذية..... 64

الفصل السادس: أروقة الأزهر وتجلي الحقيقة المهدوية..... 74

الفصل السابع: شبكة الغيب.. الخضر والأبدال والعصائب 82

الفصل الثامن: شرارة الفتن.. نار أذربيجان وزلازل الأرض 90

الفصل التاسع: رايات المشرق.. سواعد إيران الممهدة..... 98

الفصل العاشر: عاصفة الشام والراية الحمراء..... 106

الفصل الحادي عشر: دماء على ضفاف الفرات 116

الفصل الثاني عشر: رايات المشرق تكسر القيد 124

الفصل الثالث عشر: نداء السماء وخسف البيداء..... 132

الفصل الرابع عشر: شمس مكة وصرخة الثأر..... 140

الفصل الخامس عشر: زحف الغضب المقدس وإرساء القواعد 152

الفصل السادس عشر: الملحمة الكبرى ومأدبة مرج عذراء..... 160

الفصل السابع عشر: صلاة في الأقصى ومعراج منتظر..... 168

الفصل الثامن عشر: شمس العدل وإشراقة الأرض (خاتمة المطاف)

..... 178

الفصل التاسع عشر: بوابات الخلود.. انشقاق الأرض وبدء دولة

الرجعة..... 190

الفصل العشرون: أشراط الساعة الكبرى والنفخ في الصور..

طي السجل 194